أجاثا كريستي

عدالة القدَر

دار النجمة للنشر والتوزيع

عَدالة القَدَر

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

عَدالة القَدَر

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

البداية

اعتادت الآنسة جين ماربل أن تقرأ جريدتها في الثانية بعد الظهر، وكان موزّع الصحف يحمل إليها جريدتين كل صباح، فإذا جاء في الوقت المناسب قرأت الجريدة الأولى وهي ترشف قدحها المبكّر من الشاي، ولكن الموزّع كان معروفا باضطراب مواعيده، وكثيراً ما كان يحلّ محله موزّع جديد أو بديل مؤقّت له. ولكل موزّع خطّ سيره الخاص الذي يعتقد أنه يجنّبه ملالة الروتين، ولكن العملاء الذين تعوّدوا قراءة الصحف في وقت مبكّر يضايقهم أن تصل الصحف متأخّرة لأنهم يريدون الإلمام بالأنباء الهامة والمثيرة قبل أن يستقلّوا الحافلة أو القطار أو غيرهما من وسائل المواصلات إلى مقارّ أعمالهم، أمّا العجائز من نساء قرية سانت ماري ميد فكنّ يؤثِرن قراءة الصحف على مهل وهنّ يتناولن طعام الفطور.

وفي اليوم الذي نحن بصدده تناولَت الآنسة ماربل طعام الغداء، وبعد أن غفت قليلاً في المقعد الذي ابتاعته خصيصاً ليُريح ظهرها من ألم الروماتيزم أخذت تتفحّص جريدة التايمز. وكان من بواعث ضيقها أن الجريدة لم تعُدْ كالعهد بها، ففيما

مضى كان القارئ يعرف أين يجد المقال الذي يهمّه، أما الآن فقد تخلّت الجريدة عن هذا التقليد، فقد خصّصت صفحتين أو أكثر للرحلات واهتمّت بإبراز أنباء الرياضة، أمّا أنباء المواليد والزواج والوَفَيات التي كانت فيما مضى أوّل ما يلفت نظر الآنسة ماربل لوجودها في مكان واضح. وقد تنقّلَت بين صفحات مختلفة وفي النهاية استقرّت في الصفحة الأخيرة.

وكانت الآنسة ماربل قد بدأت بقراءة الأنباء الرئيسية بالصفحة الأولى، ولم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، فقد كانت هي نفس الأنباء التي قرأتها في الصباح مع فارق واحد، وهو أنها صيغت في أسلوب أكثر رصانة. وبعد أن ألقت نظرة سريعة على محتويات العدد انتقلت مباشرة إلى الصفحة الأخيرة حيث أنباء المواليد والزواج والوَفَيات، وقد فكرت كما فكرَت كثيراً من قبل كلما مرت ببصرها على تلك الصفحة وقالت لنفسها: من المحزن حقاً ألاّ يثير اهتمامي سوى أنباء الوَفَيات.

ثم شرعَت في قراءة أسماء المتوفّين بمزيد من العناية، وكانت مرتبة ترتيباً أبجدياً فقرأت: "أنغوسترو، أردن، بارتون، بورغفايسر"... بورغفايسر؟ يا له من اسم ألماني! "كارنتر، كانتريل إليزابيث كانتريل، في الخامسة والثمانين من عمرها"... يا إلهي! كنتُ أظن أنها تُوفّيَت منذ وقت طويل. مَن كان يظن أنها عاشت حتى أمس رغم هزالها وضعف بنيتها؟ "رادلي، رافيل"... رافيل، جيسون رافيل؟ أنا أعرف هذا الاسم.

ثم نحّت الجريدة جانباً وحاولت أن تتذكّر أين سمعَت اسم رافيل، وقالت لنفسها: هذا اسم مألوف وسأذكر صاحبه حتماً.

ثم أرسلَت بصرها عبر النافذة إلى الحديقة التي منحتها كثيراً من المتعة وكلّفتها كثيراً من الجهد والعمل الشاق سنوات طويلة إلى أن نصحها الأطباء ألاّ تعمل بها فترات طويلة، وقد حاولَت مرة أن تقاوم ذلك الحظْر ولكنها في النهاية وجدت أنه من الفضل لها أن تخضع لنصيحة الأطباء، ثم تنهدت وتناولت حقيبة التطريز فأخرجت منها سترة من الصوف لطفل صغير ينقصها الكُمّان. إن حياكة كُمَّين متشابَهين عمل مملّ ولكن لا بأس، فمنظر الصوف الوردي يبعث على البهجة. بماذا يذكّرها ذلك اللون الوردي؟ أجل، أجل، هو يذكرها بذلك الاسم الذي قرأته في الجريدة، فصوف وردي وبحر أزرق وشاطئ رملي وشمس مشرقة، وهي تحيك بإبرتها، والسيد رافيل. أجل، لقد تذكَّرَت الآن.

لقد كان ذلك في جزيرة سان أونوريه بالبحر الكاريبي خلال الرحلة الممتعة التي هيّأها لها ريموند ابن أخيها. هي تذكر جيداً عبارة جوان زوجة ريموند حين قالت لها قُبيل الرحلة: "لا تحاولي الاهتمام بجرائم القتل خلال رحلتك يا عمّتي لأن ذلك سيؤذي صحّتك". ولم يكن في نيتها أن تهتم بأية جرائم، ولكن ذلك حدث رغم إرادتها، ووقتئذ كانت قد عرفت السيد رافيل وسكرتيرته السيدة والترز، أستر والترز، ومساعده المدعو جاكسون، وها قد مات السيد رافيل المسكين. لقد كان يعلم أنه سيموت قريباً، وقد قال لها ذلك، ولكن يبدو أنه عاش أطول مما توقّع الأطباء، وقد كان رجلاً قويّ الإرادة عنيداً وعلى جانب كبير من الثراء.

ثم راحت الآنسة ماربل تعمل بإبرتها وتفكّر في السيد رافيل وتحاول أن تذكر عنه كل ما تسعفها به ذاكرتها، فلم يكن السيد

رافيل من أولئك الذين يسهُل نسيانهم. لقد كان رجلاً صعب المراس فظاً في بعض الأحيان غنياً جداً، وكانت سكرتيرته ومساعده -وهو في ذات الوقت مدلِّك متمرس- يرافقانه أينما ذهب، فقد كان قعيداً وبحاجة إلى معونتهما. ثم تساءلت الآنسة ماربل، تُرى هل ظل جاكسون مع سيّده إلى آخر لحظة؟ ربما لا، فقد كان السيد رافيل مولعاً بالتغيير والتعديل، كما كان سريع الضِّيق من الناس ووجوههم، ولكنه كان نعم الصديق. لقد عرفَت ذلك بنفسها خلال الفترة القصيرة المثيرة التي عملا فيها معاً، كما تذكرَت الآنسة ماربل كيف انطلقَت تعدو تحت جنح الظلام حتى وصلت إليه، وكيف ضحك حين رأى الكوفية الوردية اللون التي كانت تغطي بها رأسها في تلك الليلة، ثم أطرقت برأسها وغمغمت قائلة: مسكين السيد رافيل، أرجو ألاّ يكون قد تألم كثيراً.

ثم تذكرَت كيف كان يتألم خلال الأسابيع التي قضاها في الجزيرة، وكيف احتمل آلامه بصبر وشجاعة. أجل؛ فقد كان رجلاً شجاعاً، وعلى الرغم من مرضه وكبر سنّه فمن المحقق أن العالَم قد خسر شيئاً بفقده. ولم تكن الآنسة ماربل تعرف شيئاً عن أساليبه في العمل، فلعله كان في معاملته شديد الصلابة والشراسة، ولكنها كانت واثقة من أن في أعماقه بعض رواسب من الرحمة حَرِص على ألاّ تبدو في نبرات صوته أو في قَسَمات وجهه. تُرىَ هل كان ربّ أسرة؟ لكنه لم يتحدّث قط عن زوجة أو ولد، ولعله لم يكن يشعر بالوحدة لأن حياته كانت حافلة مليئة.

وقضت كذلك وقتاً طويلاً تفكّر في السيد رافيل وتَعجب

لأمره، فهي لم ترَه منذ عودتها إلى إنكلترا، ولم تكن تتوقّع أن تراه، ولكن لو أنه اتصل بها واقترح عليها أن يتقابلا بدافع إحساسه بوجود رابطة بينهما هي حياة ذلك الإنسان الذي تعاونا على إنقاذه في جزيرة سان أونوريه أو أية رابطة أخرى من نوع آخر مثل وحدة الطباع أو... وفجأة كفّت عن التفكير ثم قالت لنفسها: لا، لا يمكن أن يكون بيننا وحدة طباع، فأنا لا يمكن أن يكون لي مثل غطرسته وصرامته وطباعه الفظة.

وفي المساء كان موضوع السيد رافيل لا يزال يشغل بالها وهي تسير الهوينى بين شجيرات حديقتها، وحانت منها التفاتة إلى زهرة من نوع معيّن فقالت بصوت مرتفع: كم أمقت هذه الزهور! ألم أقل لجورج أكثر من مرة إنني لا أريدها في حديقتي؟

وحينئذٍ سمعت صوتاً من الجانب الآخر من السور الذي يفصل بين الحديقة والطريق يقول: معذرة. هل قلتِ شيئاً؟

فأجابت: لا أظن، فقد كنتُ أتحدّث إلى نفسي.

ثم نظرَت من فوق السور فرأت امرأة لا تعرفها، وكانت تعرف أهل القرية كلهم تقريباً، أمّا تلك المرأة المتوسطة القامة القوية البِنْية فهي لم تسبق لها أن رأتها، ثم لنفسها قالت: الناس في مثل سِنّي كثيراً ما يتحدّثون إلى أنفسهم.

قالت المرأة: لديك حديقة جميلة.

- لم تعد كذلك الآن، ولكن عندما كنتُ أشرف عليها شخصياً...

فقاطعتها المرأة: نعم، أنا أفهم ما تعنين، وأكبر الظن أنك أوكلت أمرها إلى أحد أولئك العجائز الذين يزعمون أنهم يعرفون كل شيء عن فِلاحة البساتين في حين أنهم لا يعرفون إلا القليل أو لا يعرفون شيئاً على الإطلاق، فكل ما يفعلونه هو أنهم يجتثّون قليلاً من العشب ويحتسون عدداً لا يحصى من أقداح الشاي، أمّا أنا فشديدة الولع بفلاحة البساتين.

- هل تقيمين هنا؟

- أنا أقيم في بيت السيدة هاستنغز، وأعتقد أنني سمعتُها تتحدث عنك يا آنسة ماربل.

- حسناً.

- أنا أدْعى بارتليت، السيدة بارتليت، وقد أوكلَت إليّ السيدة هاستنغز أمر العناية بحديقتها، ولكنها لا تريد سوى الزهور الموسمية المألوفة، وذلك لا يتطلّب براعة ولا يكلّفني جهداً كثيراً، فإذا أردتِ معونةً فأنا على استعداد لأنْ أبذل لحديقتك ساعة أو ساعتين كل يوم، وأؤكد لك أنني سأكون أفضل من البستاني الذي لديك الآن.

- الواقع أنني أحبّ الزهور ولا أهتم بالخضروات.

- أنا أزرع حديقة السيدة هاستنغز خضروات، وهو عمل مملّ. أظن أنني يجب أن أذهب الآن.

ثم نظرت إلى الآنسة ماربل من قمّة رأسها إلى أخمص قدميها كأنها تريد أن تطبع صورتها في ذهنها، ثم حيّتها ومضت في سبيلها. وفكرت الآنسة ماربل مَن تكون السيدة هاستنغز هذه،

فهي لا تذكر هذا الاسم. لعلها إحدى المقيمات في البيوت الجديدة التي شُيّدَت في نهاية طريق جبل طارق، ثم انتقلت إليها بعض العائلات في العام الماضي.

* * *

الفصل الثاني

كلمة السرّ

بعد نحو أسبوع حمل البريد إلى السيدة ماربل ثلاث رسائل، فتناولَت إحداها ونظرَت إليها طويلاً قبل أن تفضّها، أمّا الرسالتان الأخريان فكان يبدو أنهما تحتويان على فواتير أو إيصالات لا أهمية لها، وكانت الرسالة التي أثارت اهتمامها تحمل طابع بريد لندن، وغلافها مستطيل ومن نوع جيّد وقد كُتب عليها العنوان بالآلة الكاتبة، ففضّتها الآنسة ماربل بعناية وقرأت في أعلاها: «برودريب وشوستر، محاميان ومحرّرا عقود». كانت رسالة مهذبة مكتوبة بأسلوب رجال القانون، وفيها يطلب إليها المحاميان زيارتها في مكتبهما في بيري بلندن يوم الخميس التالي لبحث موضوع قد يفيدها، وإذا لم يلائمها هذا الموعد فلتتفضّل بتحديد موعد آخر في وقت قريب، كما أضافا أنهما محاميا السيد رافيل الذي يعتقدان أنها تعرفه.

قرأت الآنسة ماربل الرسالة وقطبت حاجبيها بدهشة، ثم راحت تهبط الدرَج ببطء وهي مستغرقة في التفكير في حين كانت وصيفتها شيري تتبعها عن كثب لنجدتها إذا ما تعثّرت على

الدرَج العتيق، فقالت لها الآنسة ماربل: أراك شديدة الاهتمام بي يا شيري.

- يجب أن أكون كذلك يا سيدة ماربل؛ فالناس الطيّبون قلائل.

- شكراً لك على هذا الإطراء يا شيري.

- هل ثمة ما يضايقك يا سيدة ماربل؟ يبدو أنك مشغولة البال.

- لا شيء يا شيري. لقد وصلَت للتوّ رسالة عجيبة من أحد مكاتب المحاماة.

فقالت شيري التي تعوّدَت أن تعتبر رسائل المحامين نذير شرّ: أرجو ألاّ يكون هناك من يريد مقاضاتك.

- لا أظن ذلك، فهم يطلبون إليّ مقابلتهم في لندن الأسبوع القادم.

- لعل بعضهم تُوفّي وأوصى لك بثروته.

- هذا أمر بعيد الاحتمال.

- مَن يدري؟

فتهالكت الآنسة ماربل في مقعدها المألوف وتناولت حقيبة الحياكة. هل يمكن أن يكون السيد رافيل قد ترك لها مبلغاً من المال حقاً؟ ولكن السيد رافيل ليس من ذلك النوع، ولم يكن في استطاعتها الذهاب إلى لندن في الموعد المحدد؛ فقد كان مقرراً أن تشترك في اجتماع بمعهد السيدات لمناقشة موضوع جمع

التبرّعات لإنشاء غرفتين إضافيتين بالمعهد المذكور، فكتبَت إلى المحاميَّين تُحدّد موعداً آخر في الأسبوع التالي.

* * *

نظر السيد برودريب في ساعته وقال يحدّث شريكه السيد شوستر: تُرى ما شكلها؟

فقال شوستر: إذا كانت ممن يحافظن على المواعيد فيجب أن تكون هنا خلال ربع ساعة.

- أعتقد أنها متقدمة في السن، والمسنّون أحرص على المواعيد من شباب اليوم المتهوِّرين.

- تُرى هل هي نحيلة أم بدينة؟

فهز برودريب رأسه ولم يُجِب، فقال شوستر: ألم يصِفْها السيد رافيل؟

- لقد كان شديد الحذر في كل ما ذكرَه عنها.

- الأمر كله يبدو غاية في الغرابة! ليتنا فقط نعلم حقيقة الموضوع!

ففكر برودريب قليلاً ثم قال: قد يكون الموضوع خاصاً بمايكل.

- أبَعد كل هذه السنين؟ لا أظن، ولكن ما الذي جعلك تفكر في هذا؟ هل قال لك شيئاً؟

- لم يقُل لي شيئاً، ولم يُشِر من قريب أو بعيد إلى ما يدور

بخُلده، فقد أصدر إليّ تعليماته فحسب.

- هل تظن أنه أصيب بلَوثة في الأيام الأخيرة؟

- لا، مطلقاً، فلم يؤثر اعتلال جسده على قُوَاه العقلية، وقد ربح مئتَي ألف جنيه من صفقاته خلال الشهرين الأخيرين من حياته.

- الحق أنه كان موهوباً.

- لقد كانت له عقلية مالية منقطعة النظير!

وفي تلك اللحظة رنّ جرس الهاتف فتناول شوستر السماعة فسمع صوتاً نسائياً يقول: لقد حضرَت السيدة جين ماربل، وهي على موعد مع السيد برودريب.

فنظر شوستر إلى شريكه وأومأ برأسه، فقال شوستر محدّثاً السكرتيرة: دعيها تدخل.

دخلت الآنسة ماربل فرأت رجلاً متوسّط العمر نحيل الجسم ينهض لتحيّتها، ثم وقع بصرها على رجل آخر أصغر سناً وأقوى بنية يقف بجواره، فقال الأول: اسمحي لي بأن أقدّم لك شريكي السيد شوستر.

ثم قال هذا الأخير: أرجو ألاّ يكون صعود الدرَج قد أتعبك.

- أنا ألهث قليلاً كلّما ارتقيتُ درَجاً.

فقال برودريب معتذراً: الواقع أن المبنى عتيق وليس به مصعد، فنحن قد استأجرنا هذا المكتب منذ وقت طويل.

فقالت الآنسة ماربل وهي تنظر حولها: هو مكان جميل على كل حال.

ثم جلسَت على المقعد الذي قدّمه إليها برودريب في حين تسلّل شوستر بهدوء إلى الخارج. وبعد حديث تقليدي قصير عن الطقس والصقيع قال برودريب وهو يعبث ببعض أوراق أمامه: لا شك أنك سمعتِ عن وفاة السيد رافيل.

- لقد قرأتُ النبأ في إحدى الصحف.

- لقد كان صديقاً لك فيما أعتقد.

- لقد قابلتُه لأول مرة منذ أكثر من عام، وكان ذلك في جُزُر الهند الغربية.

- نعم، أذكر أنه ذهب إلى هناك للاستشفاء، ولكن المرض كان قد اشتدّ عليه، وقد كان قعيداً كما تعلمين.

- أجل.

- هل كنتِ تعرفينه جيداً؟

- لا أستطيع أن أزعم ذلك، فقد كنا مجرّد سائحَين مقيمَين بفندق واحد يتبادلان الحديث أحياناً، ولكنني لم أرَه قط بعد عودتي إلى إنكلترا، ولعل السبب أنني أقيم في بقعة ريفية هادئة، كما أنه كان منصرفاً كلية إلى عمله.

- الواقع أنه ظل يباشر عمله حتى آخر يوم في حياته. لقد كان ذا عقلية مالية فذة.

- أنا واثقة من ذلك، وقد تبيّنتُ على الفور أنه شخصية

غير عادية.

– هل لديك أية فكرة عن اقتراح السيد رافيل والذي أمرني بأن أعرضه عليك؟

– ليس في استطاعتي أن أتصوّر أيّ نوع من الاقتراحات يمكن أن يعرضه عليّ السيد رافيل.

– لقد كان يكنّ لك أعظم تقدير.

– هذا كرم منه. أنا مخلوقة بسيطة للغاية.

– لا شك أنك تعلمين أنه كان واسع الثراء، وقد كتب وصيّة قبل وفاته.

– هذا أمر مألوف في هذه الأيام.

– لقد طلبتُ مقابلتك كي أقول لك إن السيد رافيل كلّفني بأن أخبرك أنه خصّص مبلغاً من المال سيكون من حقك بعد عام، بشرط أن تقبلي الاقتراح الذي سأطلعك عليه.

قال ذلك وتناول من فوق مكتبه ظرفاً مستطيلاً مختوماً قدّمه إليها واستطرد قائلاً: لعله من الأفضل أن تقرئي ما جاء في هذا الخطاب، اقرئيه على مهل.

وبتمهُّل فضّت الآنسة ماربل الغلاف وأخرجت منه ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة فقرأتها بإمعان ثم نظرت إلى برودريب وسألت: ألا توجد تفصيلات أخرى من أي نوع؟

– لا علم لي بشيء. لقد طلبَ إليّ أن أقدّم إليك هذه الرسالة وأن أذكر لك المبلغ الذي أوصى به، وهذا المبلغ هو

عشرون ألفاً من الجنيهات خالصة من ضرائب التركات.

فنظرت إليه الآنسة ماربل وقد أذهلتها المفاجأة وأفقدتها القدرة على الكلام، وراح برودريب يرقبها في صمت. لم يكن هناك شك في أن ما سمعته الآنسة ماربل في تلك اللحظة كان آخر ما توقّعَت أن تسمعه. ثم قالت أخيراً وهي تنظر إليه بحدّة: هذا مبلغ كبير جداً!

- ليس بسعر النقد في هذه الأيام.

- يجب أن أقول لكَ بصراحة إنني في أشدّ حالات الدهشة!

وراحت تقرأ الرسالة مرة أخرى بمزيد من العناية ثم قالت: هل تعرف ما جاء بهذه الرسالة؟

- نعم، فقد أملاها عليّ السيد رافيل شخصياً.

- ألم يذكر لك شيئاً من الإيضاحات؟

- أبداً.

- ولكن يُخيّل إليّ أنكَ اقترحت عليه أن يذكر مزيداً من التفصيلات، أليس كذلك؟

فمرّت على شفتي برودريب ابتسامة شاحبة ثم قال: هذا ما فعلتُه، فقد قلتُ له إنه يشقّ عليك أن تفهمي غرضه تماماً.

فقلبت الآنسة ماربل شفتيها ولم تُجِب، فقال برودريب: طبعاً لا حاجة بك إلى الإدلاء برأيك الآنَ.

- يجب أن أقرّ بالأمر.

- هذا المبلغ كبير كما ذكرتِ أنت، ويستحق التفكير حقاً.

- لقد تقدمَت بي السنّ، وقد لا يمتدّ عمري عاماً آخر كي أربح هذا المبلغ، هذا إذا استطعتُ أن أربحه إن عِشتُ.

- المال شيء لا ينبغي أن يحتقره الإنسان مهما بلغ من العمر.

- هذا صحيح، وفي استطاعتي أن أفيد بهذا المبلغ بعض المؤسسات الخيرية التي يهمّني أمرها، ودائماً يوجد أناس يودّ الإنسان أن يمدّ إليهم يد المساعدة ولكن إيراداته الخاصة لا تسعفه. وفضلاً عن ذلك لستُ أزعم أنه لا توجد بعض مُتَع ومسرّات يطيب لي أن أنعم بها ولم يصدّني عنها سوى ضيق ذات اليد.

- في استطاعتك أن تذهبي في رحلة إلى الخارج مثلاً، وأن تذهبي إلى المسارح والحفلات الموسيقية، وأن تحشدي في منزلك أفخر التُّحَف والمقتنيات.

- أنا أكثر تواضعاً من ذلك، بحسبي أن أتناول سمّانة كاملة وأن أحصل على كأس من عصير البرتقال، وحبّذا لو امتلكتُ سيّارة أذهب بها إلى دار الأوبرا.

ثم تنهّدَت وقالت: أرى أنني أهيم في عالم الوهم والخيال. سآخذ معي هذه الرسالة لأعيد قراءتها وأفكر فيما جاء بها، ولكن بالله عليك ما الذي حمل السيد رافيل على أن يفعل ذلك؟ أليست لديك فكرة عن الأسباب التي حملت السيد رافيل على أن يعرض عليّ هذا الاقتراح؟ وما الذي جعله يعتقد أنني أستطيع

أن أقدِّم شيئاً بطريقة ما؟ كان ينبغي عليه أن يعلم أن عاماً قد انقضى وأنني قد أصبحتُ أشدّ ضعفاً وأقلّ مقدرة على استخدام مواهبي المحدودة مما كنتُ قبلاً. من المحقق أن هناك كثيرين أصلح للقيام بالمهمة التي أوكلها إليّ.

فقال برودريب: وذلك بصراحة هو رأيي أيضاً، ولكنه اختارك أنت يا سيدة ماربل، ومعذرة على فضولي إذا سألتك، هل لك صلة بموضوع الجرائم وتحقيقها؟

- ليست لي أية صلة رسمية، وكل ما أستطيع أن أقوله لك على سبيل الإيضاح هو أنني والسيد رافيل قد اشتركنا في موضوع جريمة قتل محيّرة في أثناء إقامتنا في جُزُر الهند العربية.

- هل تعنين أنكما استطعتما إماطة اللثام عنها؟

- الأصحّ أنه هو بقوّة شخصيته وأنا بقوّة ملاحظتي ومقدرتي على التقصّي والاستنتاج قد استطعنا أن نحول دون وقوع جريمة قتل، ولم يكن ممكناً أن أفعل ذلك وحدي لأنني ضعيفة ولا أن يفعله هو بمفرده لأنه كان كسيحاً، ولذلك تحالفنا معاً ونجحنا.

- سؤال آخر يا سيدة ماربل، عبارة «عدالة القدَر»: هل تعني شيئاً بالنسبة إليك؟

فأجابت وقد أشرق وجهها بابتسامة: عدالة القدَر؟ نعم، إنها تعني شيئاً بالنسبة إليّ، وكانت تعني شيئاً بالنسبة إلى السيد رافيل أيضاً. لقد استعملنا هذه العبارة في حديث مشترك يتعلق بواقعة عشنا أحداثها ذات مرة يوم.

ثم نهضَت الآنسة ماربل وهي تقول: إذا عرفتَ أو تلقّيت من المعلومات ما يلقي ضوءاً على الموضوع الذي ذكره السيد رافيل في رسالته فأرجو أن تبلغني إياه يا سيد برودريب، وسوف يحزنني ألاّ تتلقى مثل هذه المعلومات وإلا سأظلّ في جهل تامّ بما يريد السيد رافيل أن أفعله.

- ألا تعرفين أسرته، أو أصدقاءه، أو...

- لا، قلتُ لك إننا كنا مجرّد زميلين في رحلة سياحية ببلد أجنبي، ثم نشأ بيننا نوع من التحالف حيال قضية محيّرة.

قالت ذلك وسارت إلى الباب، ولكنها توقفت فجأة عندما بلغته وقالت: كانت للسيد رافيل سكرتيرة خاصة هي السيدة أستر والترز. هل ثمة ما يمكنك من أن تقول لي ما إذا كان السيد رافيل قد أوصى لها بمبلغ من المال أم لا؟

- مضمون الوصية سيُنشر في الصحف، ولكنني أستطيع أن أقول إنه أوصى لها بخمسين ألفاً من الجنيهات. وبالمناسبة، السيدة والترز قد تزوجَت وأصبح اسمها السيدة أندرسن الآن.

- يسرّني أن أعلم ذلك، فقد كانت أرملة ولها ابنة واحدة. لقد كانت تفهم السيد رافيل جيداً، والحق أنها كانت على جانب عظيم من الكفاءة.

* * *

في مساء ذلك يوم جلست الآنسة ماربل في مقعدها أمام الموقد وبسطت الرسالة التي تركها لها السيد رافيل وراحت تعيد قراءتها بصمت تارة وبصوت مسموع تارة أخرى كأنما تريد

تسجيل بعض العبارات في ذاكرتها:

إلى السيدة ماربل بقرية سانت ماري ميد،

سوف تصلك هذه الرسالة بعد موتي عن طريق محاميّ السيد جيمس برودريب الذي يتولى المشكلات القانونية في حياتي، وهو رجل أمين جدير بالثقة ولكنه خليق -كأكثر الناس- بأن يصاب بآفة الفضول، ولم أشأ أن أُشبِع فضوله؛ فأنا أريد لهذا الموضوع أن يظل سرّاً بيني وبينك.

كلمة السرّ بيننا يا سيدتي العزيزة هي «عدالة القدَر»، ولا أظنك قد نسيتِ المكان أو الظروف التي ذُكرت فيها هذه الكلمة لأوّل مرة. لقد اكتشفتُ خلال حياتي العملية الطويلة الصفة التي يجب أن تتوفّر للشخص الذي أودّ استخدامه، هذا الشخص يجب أن تكون له حاسّة سادسة بالنسبة للعمل الخاص الذي أسنده إليه، والحاسّة السادسة ليست المعرفة أو التجارِب وإنما الموهبة الطبيعية لأداء عمل معيّن. وأنت يا سيدتي العزيزة حاسّة سادسة بالنسبة إلى العدالة، وبالتالي لديك حاسّة سادسة بالنسبة إلى الجريمة، وأنا أريدك أن تقومي بالتحقّق من جريمة معيّنة، وقد رصدتُ مبلغاً من المال سيكون من حقك إذا أنت قَبِلتِ هذه المهمّة ونجحتِ في أدائها خلال عام واحد.

أنتِ لست في مقتبل العمر ولكنك قوية البِنْية، وأعتقد أنه بوسعي أن أطمئنّ إلى أن القَدَر سيمدّ في عمرك عاماً

آخر على الأقل، وأكبر ظني أن هذه المهمّة لن تثير نفورك؛ فقد وهبتك الطبيعة قدرة عجيبة على التحقيق في الجرائم، أمّا النفقات التي يتطلّبها العمل فستُصرَف لك أولاً بأوّل. أنا أعرض عليك هذه المهمّة كبديل للحياة الهادئة الخاملة التي تَحيَيْنها الآن، فأنا أتخيّلك جالسة في مقعد كبير مما يرتاح مرضى الروماتيزم إلى الجلوس فيه، ذلك أن جميع الناس في مثل سنّك يعانون من نوع من أنواع الروماتيزم، فإذا كان هذا المرض قد أصاب ظهرك أو ركبتك فأنت لا تتحركّين بسهولة وتقضين جُلّ وقتك في الحياكة والتطريز، وأنا أراك بعين الخيال الآن كما رأيتك ذات ليلة وبين يديك كُرة ضخمة من خيوط الصوف الوردي اللون تحيكين منها مزيداً من السترات والكوفيّات وأشياء أخرى لا أعرف اسمها، فإذا آثرتِ الاستمرار في الحياكة فذلك شأنك، وإذا آثرتِ خدمة العدالة فأنا أرجو أن تجدي في ذلك شيئاً من المتعة على الأقل.

* * *

الفصل الثالث

الآنسة ماربل تعمل

قرأت الآنسة ماربل تلك الرسالة ثلاث مرّات ثم وضعتها جانباً وراحت تفكّر في مضمونها ومغزاها، وكان أول ما لاحظَته على الرسالة خلوّها من أية معلومات محددة، فهل سيوافيها برودريب بهذه المعلومات؟ هي واثقة من أن ذلك لن يحدث لأنه لا يتلاءم مع خطة السيد رافيل، ولكن ماذا كان رافيل يريدها أن تفعل في موضوع لا تعلم منه شيئاً؟ لا شك أن الرجل تعمّد أن يضعها أمام لغز محيّر. ثم عادت بها الذاكرة إلى الفترة القصيرة التي عرفته فيها. لقد تذكرَت عاهته وعجزه وضيق صدره وسخريته اللاذعة ولمحات مَرَحه القليلة، وخلصت من ذكرياتها عنه إلى أنه كان يجد متعة في إغاظة الناس. ألم يكن ما جاء في رسالته دليلاً على أنه استمتع بإغاظة برودريب حين تعمّد ألاّ يشبع فضوله؟

ولم يكن في الرسالة ما يرشدها إلى الجريمة التي يريدها على أن تقوم بالتحقق منها، فمن المؤكّد أنه تعمّد ذلك لغرض في نفسه، ولكن كيف تبدأ هي ومن أين تبدأ؟ هي تجد نفسها أمام ما يشبه لغزاً من ألغاز الكلمات المتقاطعة ولكن بلا شرح

أو إيضاح يرشدها إلى الكلمات المطلوبة، فينبغي أن يكون هناك ما يرشدها وأن تعرف على وجه التحديد ما المطلوب منها وإلى أين يجب أن تتّجه، وهل القضية من النوع الذي يقتضيها أن تقبع في مقعدها وتعمل بإبرتها كي تركّز تفكيرها وتصل إلى الحل أم أن رافيل يريدها أن تستقلّ طائرة أو باخرة لتذهب بها إلى جُزُر الهند الغربية أو أمريكا اللاتينية أو أي مكان آخر معين. هي أمام أحد أمرين: إمّا أن تكتشف بنفسها المهمّة التي يُراد منها القيام بها، أو أن تنتظر حتى تتلقّى تعليمات واضحة محدّدة بشأنها، أو لعل الرجل ظنّ أنها من البراعة بحيث تستطيع أن تخمّن وتسأل وتهتدي بنفسها إلى الطريق.

ثم قالت بصوت مرتفع: إذا كان قد ظنّ ذلك فمن المؤكّد أنه أصيب بالجنون قبل أن يموت.

ولكنها كانت واثقة من أنه لم يجن قبل أن يموت. ثم قالت لنفسها: سوف أتلقّى تعليمات، ولكن ماذا ستكون هذه التعليمات؟ ومتى سأتلقاها؟ وممّن؟

وفجأة أدركَت أنها تفكّر وكأنها قد قَبِلت المهمّة بصفة نهائية، فقالت مرة أخرى بصوت مرتفع وهي تنظر إلى الفضاء: أنا أؤمن بخلود الروح، ولكنني لا أعلم أين أنت الآن يا سيد رافيل، ولكنني واثقة من أنك في مكان ما، وسوف أبذل قصارى جهدي لتحقيق رغباتك.

* * *

بعد ثلاثة أيام كتبَت الآنسة ماربل إلى السيد برودريب الرسالة المقتضبة التالية:

عزيزي السيد برودريب،

لقد فكّرتُ في الأمر وقرّرتُ قَبول اقتراح السيد رافيل، وسأبذل قصارى جهدي لتحقيق رغباته رغم أنني لستُ واثقة من النجاح، فكيف أنجح وأنا لا أجد في رسالته أية تعليمات؟ فإذا كانت لديكَ رسائل أخرى تتضمّن معلومات أو إيضاحات فسأكون سعيدة إذا بعثتَ بها إليّ، فأنا أفترض أن السيد رافيل كان يتمتع بكامل قُوَاه العقلية قبل أن يموت، وأعتقد أن من حقّي أن أسأل هل كانت في حياة السيد رافيل العملية أو الخاصة قضية جنائية تثير اهتمامه، وهل عبّر لك عن غضبه أو استيائه من سوء تطبيق العدالة في قضية ما، وهل تعرّض أحد أقربائه أو معارفه إلى متاعب أو كان ضحيّة لمعاملة ظالمة. أنا واثقة من أنك ستدرك الأسباب التي تحملني على إلقاء هذه الأسئلة؛ فالسيد رافيل نفسه يتوقّع أن ألقيها.

عرضَ برودريب تلك الرسالة على شريكه السيد شوستر الذي اعتدل في مقعده وقال: لقد قَبِلَت المهمّة، أليس كذلك؟ يا لها من عجوز جريئة! أعتقد أنها تَعرف شيئاً عن الموضوع.

- لا أظن ذلك.

- ليتنا كنا نعرف. لقد كان رجلاً غريب الأطوار حقاً!

- وصعب المراس أيضاً.

- ليست لدي أية فكرة عن الجريمة التي ذكرها في رسالته، فهل لديك أنت؟

- لا، وأظن أنه تعمّد ألاّ يدَعني أعرف شيئاً عنها.

- لقد زاد الأمر بذلك صعوبة وتعقيداً، ولا أظن أنه في استطاعة تلك العجوز الريفية أن تقرأ ما يدور بخلد رجل ميّت! ألا يمكن أن يكون الأمر كلّه مجرّد دعابة وأنه ربما علم أنها تتيه ببراعتها في حلّ المشكلات الريفية فأراد أن يسخر منها؟

- لا أعتقد ذلك؛ فلم يكن رافيل من هذا النوع.

- لقد كان شيطاناً مريداً في بعض الأحيان.

- هذا صحيح، ولكنني أظن أنه كان جادّاً في هذا الموضوع، فقد كان ثمة شيء يهمّه ويضايقه.

- ألم يفصح لك عنه؟

- مطلقاً.

- إذن فالموضوع مجرّد دُعابة.

- عشرون ألفاً من الجنيهات مبلغ لا يستهان به.

- أجل، ولكن هَبْ أنه كان يعلم أن العجوز لن تظفر به؟

- هو لم يكن تافهاً إلى هذا الحدّ، فلا بدّ أنه كان يعلم أن لديها فرصة للظفر بهذا المبلغ.

- وماذا علينا أن نفعل؟

- لا شيء سوى أن ننتظر لنرى ما يكون، ولا بدّ أن يحدث تطوّر ما.

- هل لديك تعليمات أخرى مختومة؟

- يا عزيزي شوستر، لقد كان السيد رافيل يثِق في إخلاصي لعملي واحترامي لآداب مهنتي كمحام، والتعليمات المختومة التي تتحدّث عنها لن تُظهر إلا في ظروفٍ معيّنة، وهذه الظروف لم تَحِنْ بعد.

كان برودريب وشوستر أسعد حظاً من الآنسة ماربل؛ فقد كانت لهما مهنة تستغرق كل وقتهما، أمّا هي فلم يكن لديها ما تفعله سوى أن تعمل بإبرتها وتفكّر، وأحياناً تخرج للنزهة فتثير احتجاج وصيفتها شيري التي لا تلبث أن تصيح قائلة: أنتِ تعرفين أوامر الطبيب. لقد حظر عليك ممارسة أي لون من ألوان الرياضة.

- أنا لا أمارس أية رياضة، ولكنني أنا أسير ببطء وأفكر في بعض الأمور.

- أية أمور؟

- ليتني أعلم!

ثم استطردت بعد صمت قصير قائلة: هل تعرفين سيّدة تقيم في بيت جديد قريب من هنا تُدعى السيدة هاستنغتز وسيدة أخرى تقيم معها تُدعى السيدة بارتليت؟

- هل تعنين ذلك البيت الذي أُعيد طلاؤه والذي يقع في طرف القرية؟ لقد جاء سكّانه منذ فترة وجيزة، ولا أعلم أسماءهم. ماذا تريدين معرفته عنهم؟

- هل ثمة صلة قرابة بين هاتين السيدتين؟

- لا، أنا أعتقد أنهما مجرّد صديقتين.

- تُرى لماذا...؟

ولم تتمّ عبارتها فهتفت شيري قائلة: عن أيّ شيء تتساءلين؟

- لا شيء. أريد قلماً وورقاً لأكتب رسالة.

فسألت شيري بما طُبعت عليه من فضول: إلى مَن؟

- إلى شقيقة قِسّ يُدعى بريسكوت.

- هل هو ذلك القسّ الذي قلتِ أنك قابلته خلال رحلتك إلى جُزُر الهند الغربية، أليس كذلك؟

- بلى.

- وماذا يحملك على الكتابة إلى تلك المرأة؟ هل أنتِ بخير؟

فصاحت الآنسة ماربل قائلة: أنا بخير وفي أحسن صحّة، وأريد أن ابدأ عملاً، وربما استطاعَت السيدة بريسكوت مساعدتي.

وكتبت الرسالة التالية:

عزيزتي السيدة بريسكوت،

لعلك ما زلت تذكرينني، لقد قابلتك مع أخيك في جزيرة سان أونوريه. أرجو ألاّ يكون القسّ العزيز قد عانى كثيراً من ضيق التنفّس بسبب برودة الجوّ في الشتاء الماضي. أنا أكتب إليك الآن للاستفسار عن

عنوان والترز، أستر والترز، السكرتيرة الخاصة للسيد رافيل. لقد ذكرَت لي عنوانها ولكن من سوء الحظ أنني نسيته، وبودّي أن أبلغها بعض معلومات خاصّة بزراعة الزهور التي كانت قد طلبتها مني. لقد علمتُ بطريق غير مباشر أنها تزوّجت للمرة الثانية، ولكن الشخص الذي أخبرني بذلك لم يكن واثقاً من صحّة هذا النبأ، ولعل عندك الخبر اليقين. تحيّاتي لأخيك القسّ، وأطيب تمنياتي لك.

المخلصة: جين ماربل.

وشعرَت الآنسة ماربل بكثير من الارتياح بعد أن أرسلَت ذلك الخطاب وقالت لنفسها: هذه مجرّد محاولة قد تثمر وقد لا تثمر، ولكنها بداية عمل على كل حال.

وجاء ردّ السيدة بريسكوت بعودة البريد متضمناً العنوان المطلوب، وقرأت فيه الآنسة ماربل ما يلي:

أنا أيضاً سمعت عن زواج أستر والترز بطريق غير مباشر، فقد قالت لي إحدى صديقاتي إنها قرأت النبأ وإن اسمها بعد الزواج قد أصبح السيدة أندرسون، وهي تقيم في ونسلو لودج بالقرب من مدينة ألتون. وقد طلب إليّ أخي القسّ أن أبلغك تحيّاته، ومما يؤسف له حقاً أن المسافة بيننا طويلة، فنحن نقيم في شمال إنكلترا في حين تقيمين أنتِ في جنوب لندن، ولكنني أرجو أن نلتقي في مناسبة ما في المستقبل القريب.

جوان بريسكوت.

غمغمت الآنسة ماربل وهي تسجّل العنوان قائلة: ونسلو لودج؟ هي ليست بعيدة عن هنا وأستطيع الوصول إليها بإحدى سيارات الأجرة، وإذا نجحَت الرحلة أمكن تسجيل نفقاتها على حساب السيد رافيل. والآن هل أكتب لأستر والترز قبل زيارتها أم أترك الأمر للظروف؟ لعل الأفضل أن أتركه للظروف. من المؤكّد أنها لا تشعر نحوي بأيّ حب أو عطف.

ثم عادت بها الذاكرة إلى مغامرتها في سان أونوريه. من المؤكد أنها أنقذَت حياة أستر والترز في تلك المغامرة، فذلك هو رأيها هي على الأقل، ولكن ربما كان لأستر والترز رأي آخر. ثم قالت بصوت خافت: إنها امرأة لطيفة، بل لطيفة جداً، وقد كادت المسكينة أن تتزوّج قاتلاً، ولذلك أعتقد أنني أنقذت حياتها حين أفسدتُ ذلك الزواج. ولكنني لا أظنها توافقني على هذا الرأي، بل لعلها تمقتني بسببه، ولهذا قد لا أستطيع الحصول منها على المعلومات التي أنشدها. ولكنني سأحاول، فالمحاولة مهما كانت نتيجتها أفضل من الانتظار.

* * *

صباح اليوم التالي طلبَت الآنسة ماربل إلى وصيفتها أن تأتيها بإحدى سيارات الأجرة، فسألتها شيري: هل ستذهبين إلى لندن؟

- لا، ولكنني سأتناول الغداء في هازملير.

فقالت شيري وهي تنظر إليها بارتياب: تُرى ماذا تدبّرين؟

- أدبّر لقاء شخص بطريق المصادفة.

وفي منتصف الساعة الثانية عشرة جاءت السيارة فقالت الآنسة ماربل لوصيفتها: اتصلي هاتفياً بهذا الرقم يا شيري واسألي السيدة أندرسون فقولي لها إن السيد برودريب يريد التحدّث إليها، فإذا قيل لك إنها خرجت فاسألي متى ستعود.

- وإذا تحدّثَت إليّ بنفسها؟

- اطلبي إليها أن تحدّد موعداً في الأسبوع القادم لمقابلة السيد برودريب في مكتبه بلندن.

- ولماذا لا تتحدّثين إليها بنفسك؟

- الذاكرة لغز عجيب، فقد يحدث أن يذكر الإنسان صوتاً حتى ولو لم يكن قد سمعه منذ أكثر من عام.

- ألا يمكن أن تعرف هذه السيدة صوتي؟

- إنها لا تعرفك ولم يسبق أن سمعَت صوتك، ولهذا طلبتُ إليك أن تتحدّثي إليها.

ففعلت شيري ما أمرت به، وقيل لها إن السيدة أندرسون خرجت لتتسوّق وإنها ستعود ظهراً ولن تغادر البيت بقية النهار، فقالت الآنسة ماربل: هذا حسن؛ فهو ييّسر الأمور.

* * *

الفصل الرابع

أستر والترز

غادرَت أستر أندرسن مبنى السوق فاتجهت إلى حيث تركت سيارتها وهي تقول لنفسها: إيجاد مكان لوقوف السيارة يزداد صعوبة يوماً بعد يوم.

واصطدمت في طريقها بعجوز تعرج قليلاً فاعتذرت لها، وهتفت العجوز بدهشة: عجباً! السيدة أستر والترز! لا شك أنك لا تذكرينني. أنا جين ماربل، وقد تقابلنا في فندق بجزيرة سان أنوريه منذ أكثر من عام.

- الآنسة ماربل؟! مَن كان يظن أنني سألقاك هنا؟

- كم أنا سعيدة بلقائك. أنا مدعوّة لتناول الغداء عند بعض الأصدقاء بالقرب من هنا. هل ستكونين في بيتك بعد ظهر اليوم؟ يسرّني أن نتجاذب أطراف الحديث معاً. ما أجمل أن يلقى الإنسان صديقاً قديماً!

- أجل، أجل، ستجدينني في انتظارك في أيّ وقت بعد الثالثة.

ثم اتفقتا على ذلك، ومضت أستر أندرسون في طريقها وهي تقول لنفسها: جين ماربل؟ ظننتها ماتت منذ وقت طويل!

وفي منتصف الساعة الرابعة تماماً رنّت الآنسة ماربل جرس الباب ففتحته أستر بنفسها ورافقتها إلى الداخل، وجلست الآنسة ماربل على المقعد الذي قدّمته إليها مضيفتها وهي تقول: ما أعجب هذه الدنيا! يتمنّى الإنسان أن يلقى شخصاً بعينه وتحدّثه نفسه بأنه سوف يلقاه حتماً، وتمضي الأيام وإذ به يلقاه فجأة حيث لم يكن يتوقع!

- ويكون أوّل انطباع له أننا نعيش في عالم صغير، أليس كذلك؟

- بلى، فجُزُر الهند الغربية تبدو بعيدة جداً عن إنكلترا، ومع ذلك فقد كان يمكن أن ألقاك فجأة في لندن أو في أحد المتاجر. والواقع أنني لم أكن أتوقع أن ألقاك هنا في هذه المدينة البعيدة عن مسكنك.

- لا، لا؛ فأنا أقيم في قرية سانت ماري ميد وهي ليست بعيدة عن هنا، فالمسافة لا تتجاوز خمسة وعشرين ميلاً، ولو كنتُ أعلم أنك تقيمين هنا لحاولتُ الاتصال بك.

- انتقلتُ إلى هنا منذ وقت قصير بعد الزواج مباشرة.

- لم يصل إلى علمي أنك تزوّجت، رغم حرصي على متابعة أنباء الزواج في الصحف.

- لقد تزوّجتُ منذ أربعة أو خمسة شهور، واسمي الآن السيدة أندرسون.

- السيدة أندرسون؟ سأحاول أن أذكر هذا الاسم. ومَن يكون زوجك؟

كان يبدو من غير الطبيعي ألاّ تسأل ماربل عن الزوج؛ فالعجائز معروفات بالفضول، وأجابت أستر: إنه مهندس. ثم استطردت بعد تردّد: وهو أصغر سنّاً مني.

- هذا أفضل يا عزيزتي؛ فالرجال في هذا الزمن تدركهم الشيخوخة أسرع من النساء، ربما بسبب كثرة الهموم والإسراف في العمل مما يصيبهم بارتفاع ضغط الدم أو انخفاضه وبأمراض القلب وقرحة المعدة، أمّا نحن فأنا أظن أننا أصلب منهم وأكثر احتمالاً.

- ربما.

ثم ابتسمت فاطمأنت الآنسة ماربل. وكانت أستر في لقاء كان بينهما فيما مضى ترمقها بنظرات تنمّ عن الحقد والكراهية، وربما كانت في ذلك الوقت تكرهها فعلاً، أمّا في تلك اللحظة فهي خليقة بأن تنظر إليها بشيء من الامتنان؛ فلولاها لكانت نزيلة أحد القبور بدلاً من هذه الحياة السعيدة التي تحياها مع السيد أندرسون.

قالت الآنسة ماربل: أنتِ تبدين في صحّة جيدة.

- وأنتِ كذلك يا سيدة ماربل.

- لقد تقدّمتُ في السن، كما تحمل الشيخوخة الآلام والأوجاع معها، ولست أعني مرضاً خطيراً، ولكن هناك الروماتيزم وآلام المفاصل والظهر والكتفين، ولكن دعينا من

هذا الحديث. بيتك جميل يا عزيزتي.

ثم نظرت حولها، وقد كان كل ما حولها ينمّ عن الثراء وسعة العيش، ولا بدّ أن تكون أستر قد ابتاعت ذلك الأثاث الثمين اعتماداً على الثروة التي هبطت عليها من السماء بعد وفاة السيد رافيل. ويبدو أن أستر أدركت ما يدور بخلدها لأنها قالت على الفور: لا شك أنك قرأت نبأ وفاة السيد رافيل.

- أجل، أجل. لقد كان ذلك منذ نحو شهر، أليس كذلك؟ وكنتُ شديدة الحزن لوفاته رغم أن الجميع كانوا يتوقّعونها، وهو نفسه كان يتوقّعها، فقد قال أكثر من مرة إنه لن يعيش طويلاً. لقد كان رجلاً شجاعاً. ألا تعتقدين ذلك؟

- بلى، كان شجاعاً جداً وكريماً جداً، وقد قال لي في بداية عملي معه إنه سيمنحني مرتّباً كبيراً وإنه يحسن بي أن أدّخر بعض ذلك المرتّب وألاّ أنتظر منه أية منحة أخرى. ولم أنتظر منه أية منحة أخرى؛ فقد كان يعني ما يقول دائماً، ولكن يبدو أنه غيّر رأيه.

- يسرّني أنه فعل ذلك.

- لقد أوصى لي بمبلغ ضخم، وكان الأمر مفاجأة لي فلم أصدّقه في البداية.

- أعتقد أنه أراد أن يكون مفاجأة لك، ولكن هل أوصى بشيء لذلك الرجل الذي كان يعمل في خدمته.

- أتعنين جاكسون؟ لا، لم يترك له شيئاً، ولكنني أعتقد أنه منحه مبلغاً من المال في السنة الأخيرة.

- هل رأيتِ جاكسون بعد أن...

- لا، أنا لم أرَه بعد رحلتنا إلى تلك الجزيرة؛ فقد ترك خدمة السيد رافيل عقب عودته إلى إنكلترا، وأعتقد أنه التحق بالعمل مع أحد اللوردات في جيرسي أو جيرنسي.

- كم كنتُ أودّ أن أرى السيد رافيل مرة أخرى. لقد بدا لي عجيباً بعد عودتي إلى إنكلترا، وبعد زمالتي للسيد رافيل في تلك الأحداث التي مرّت بنا في الجزيرة لا أكاد أعرف عنه شيئاً، وعندما قرأتُ نبأ وفاته وددتُ لو أنني استطعتُ أن أعرف المزيد عنه، أين وُلد؟ وأين أسرته؟ وهل له أقارب أو أولاد؟

فابتسمت أستر ونظرت إلى الآنسة ماربل كمن يريد أن يقول: "أجل، أنا واثقة من أنك تريدين أن تعرفي كل شيء عن كل إنسان تقابلينه". ثم قالت بصوت مرتفع: الواقع أنه كان هناك أمر واحد يعرفه الجميع عنه وهو أنه كان واسع الثراء، وعندما يعلم الإنسان عن شخص أنه غني جداً فلا يسأل عن شيء آخر.

ثم ضحكت أستر وقالت الآنسة ماربل: أظن أنه لم يتزوّج لأنه لم يتحدّث قط عن زوجته.

- لقد فقدَ زوجته منذ وقت طويل، وأعتقد أنها كانت أصغر منه سناً وأنها ماتت بالسرطان.

- هل رُزق بأولاد؟

- نعم، له ابنتان وولد، وقد تزوجَت إحدى الابنتين وهي تقيم في أمريكا الآن، أمّا الثانية فقد تُوفّيَت وهي صغيرة، وقد

قابلت الابنة الأمريكية مرّة فوجدتُ أنها تختلف كثيراً عن أبيها؛ فهي تبدو هادئة حزينة. أمّا الابن فلم يتحدّث السيد رافيل عنه قط، وأظن أنه وقع في ورطة ما أو أثار فضيحة أو شيئاً من هذا القبيل، وأعتقد أنه مات منذ بضعة أعوام. ومهما يكن الأمر فأبوه لم يتحدّث عنه قط.

- هذا أمر يبعث على الأسف حقاً.

- أظن أن ذلك حدث منذ سنوات عديدة، وأن الابن ذهب في رحلة أو سافر إلى الخارج ولم يعُدْ.

- وهل أثار ذلك قلق السيد رافيل أو حزنه؟

- لم يكن في استطاعة أحد أن يعرف ما يدور بخلده أو ما يضطرب في نفسه؛ فقد كان من ذلك الطراز الذي يعرف كيف يُلقي خسائره وهمومه وراء ظهره، فمثلاً إذا وجد ابنه أصبح نقمة لا نعمة هزّ كتفيه وأسقطه تماماً من حسابه ويفعل ما يقتضيه الواجب. وقد كان يرسل إليه بعض النقود على سبيل المساعدة، ولكنه لا يفكّر في أمره بعد ذلك.

- ألم يذكره قط في أحاديثه؟

- لا شك أنك تذكرين عنه أنه لم يكن الرجل الذي يفصح عن شعوره أو يتحدّث عن حياته الخاصة.

- أجل، أجل، ولكنني ظننتُ أنه ربما أسرّ إليك بمتاعبه بصفتك سكرتيرته الخاصة طوال عدّة أعوام.

- لو كانت لديه متاعب، وذلك ما أرتاب فيه، فلم يكن هو الرجل الذي يفضي بمتاعبه لكائن مَن كان. هو لم يكن يهمّه

سوى عمله، فعمله هو ابنه وابنته وأسرته جميعاً، ولم تكن له متعة في الحياة سوى جمع المال وعقد الصفقات.

- هل أفهم من ذلك أنه لم تصادفه أية متاعب قبل موته؟

- لا أعتقد أنه كانت هناك أية متاعب، ثم إنني تخلّيتُ عن عملي معه قبل النهاية.

- لا شك أنه تضايق كثيراً لفقدك.

- لا أظن ذلك، لم تكن هذه الأمور لتضايق رجلاً مثله، فهو سيبحث فوراً عن سكرتيرة أخرى، فإذا لم تلائمه نفحها قبضة من المال وبحث عن أخرى إلى أن يجد ضالّته، لقد كان متّزن العقل دائماً.

- أجل، أجل، ولكنه كان يفقد أعصابه بسهولة.

- لقد كان يجد متعة في ذلك.

- هل كان له اهتمام خاص بعلم الجريمة؟ أعني بدراسة الجريمة وحوافزها؟

- هل تقولين ذلك بسبب ما حدث في تلك الجزيرة؟

- لا، إنما أعني أنه ربما عجب للعوامل النفسية التي تدفع إلى الجريمة أو كان له اهتمام خاص بالقضايا التي ضلّ فيها القضاء طريق العدالة أو...

فقاطعتها أستر قائلة: ولماذا يهتم بتلك الأمور؟ أرجو ألاّ تعودي إلى ذكر تلك الأحداث المزعجة التي وقعت في سان أونوريه.

- أنا آسفة، ولكن كل ما في الأمر أنني تذكرتُ بعض عبارات قالها السيد رافيل فظننتُ أن له نظرية خاصة عن أسباب الجرائم.

- لقد كانت كل اهتمامات السيد رافيل تتركّز في المسائل المادّية فحسب.

وكانت لا تزال تنظر ببرود إلى الآنسة ماربل فقالت هذه معتذرة: يؤسفني أنني أثَرتُ ذكريات قديمة مؤلمة.

وصمتت لحظة ثم استطردت قائلة: أظن أنني يجب أن أنصرف كي ألحق بالقطار.

ثم حملت حقيبتها ومظلّتها وتهيأت للانصراف، فألحّت عليها أستر في البقاء لتتناول معها كوباً من الشاي ولكنها أجابت قائلة: شكراً لك يا عزيزتي؛ إن وقتي لا يسمح، وأرجو أن تتقبّلي تهنئتي وأخلَص تمنياتي لك بحياة زوجية سعيدة. أظن أنك لا تفكرين في الالتحاق بعمل جديد، أليس كذلك؟

- الواقع أن بعض الناس يَضِيقون بالبطالة ولكنني لست منهم؛ فأنا أريد الاستمتاع بالثروة التي تركها لي السيد رافيل.

وانصرفت الآنسة ماربل وهي تقول لنفسها: كنتُ أظن أن لها صلة بالموضوع الذي أثاره السيد رافيل أو أنها تعرف شيئاً عنه، ولكن يبدو أنني كنتُ مخطئة. والآن ماذا ستكون خطوتي التالية؟

ثم وجدَت لزاماً عليها أن تفكّر في موقفها ملياً، فقالت لنفسها: لقد عُرضَت عليّ مهمة لا أعرف عنها شيئاً وتُركَت لي

حرية قَبولها أو رفضها، فهل يجب أن أبحث بنفسي عن ماهية تلك المهمة أم أنتظر حتى أتلقّى من التعليمات ما يرشدني إليها؟ لماذا اختارني السيد رافيل دون غيري لهذه المهمة؟ هل لأن لي مواهب خاصة أتميّز بها في ناحية ما؟

ثم راحت تقيّم نفسها بكثير من التواضع. لقد كانت كل مميّزاتها تتلخّص في أنها شديدة الفضول كثيرة الأسئلة، فهل اختارها لذلك؟ ثم أضناها التفكير فهزّت كتفيها وقالت بصوت مرتفع: الحق أنكَ رجل متعِب يا سيد رافيل. لقد فعلتُ كل ما أستطيع في حدود قدراتي، والآن يجب أن أترك الأمر لك.

* * *

الفصل الخامس

تعليمات من العالم الآخر

بعد ثلاثة أيام وصلَت إلى رسالة الآنسة ماربل، ففحصَتها ونظرت إلى الخط الذي كُتب به الغلاف وإلى طابع البريد حتى إذا ما أيقنت أنها لا تتضمّن فاتورة من الفواتير المألوفة فضّتها فوجدت الخطاب التالي مكتوباً بالآلة الكاتبة:

عزيزتي الآنسة ماربل،

عندما تتسلّمين هذه الرسالة أكون قد متُّ ودُفنت، والآن لا بدّ أن يكون المحامي الخاص بي قد اتصل بك وعرض عليك اقتراحاً معيّناً. أرجو أن تكوني قد قَبِلتِه، أمّا إذا كنتِ قد رفضتِه فذلك شأنك ولن أشعر بالندم أو الأسف، وإذا قام محاميّ أو إدارة البريد بما ننتظر منهما فسوف تصلك هذه الرسالة في اليوم الحادي عشر من الشهر، وبعد يومين ستصلك رسالة من أحد مكاتب السياحة في لندن متضمنة عرْضاً أرجو أن يصيب هوى في نفسك. لن أقول أكثر من ذلك، ولكنني أريدك أن تواجهي الأمور بعقل متفتّح وأن تحافظي على نفسك.

أرجو لك حظاً سعيداً، كما أرجو أن يلازمك ملاكك الحارس؛ فستكونين بحاجة إليه.

المخلص: ج. رافيل.

وقضت الآنسة ماربل يومين وهي على أحرّ من الجمر إلى أن جاءتها الرسالة التالية من جمعية القصور والحدائق المشهورة في إنكلترا:

عزيزتي الآنسة ماربل،

تنفيذاً لتعليمات الراحل السيد رافيل نرسل إليك مرفقاً بهذا الخطاب تفصيلات الرحلة السابعة والثلاثين لجمعية القصور والحدائق المشهورة في إنكلترا، والتي تبدأ من لندن يوم الخميس الموافق ١٧ الجاري، فإذا أمكنك الحضور إلى مكتبنا في لندن فسيسرّ السيدة ساندبورن (سكرتيرة الجمعية التي ستشرف على الرحلة) أن توضح لك التفصيلات وتجيب على كل ما تطرحينه من أسئلة. سوف تستغرق الرحلة من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع. ويعتقد السيد رافيل أنك سترحّبين بها لأنها سوف تشمل منطقة من مناطق إنكلترا يظن السيد رافيل أنك لم تزوريها من قبل، وقد طلب أن نهيئ لك في هذه الرحلة أقصى ما نستطيع من أسباب المتعة والراحة، فهلا تفضّلتِ بإخطارنا عن الموعد الذي يلائمك لزيارة مكتبنا بشارع بركلي؟

طوَت الآنسة ماربل الرسالة ووضعتها في حقيبتها، ثم أجرت بعض اتصالات هاتفية بصديقات لها تعتقد أنهن اشتركن

في رحلات سابقة للجمعية، ولما لم تسمع منهن سوى الثناء على هذه الرحلات ودِقة تنظيمها اتصلت بمكتب الجمعية هاتفياً وقالت للسكرتيرة إنها ستزور المكتب يوم الثلاثاء.

* * *

في اليوم التالي تحدثَت الآنسة ماربل إلى وصيفتها في الموضوع فقالت: سوف أذهب في رحلة يا شيري.

فهتفت شيري: رحلة؟ هل تعنين رحلة إلى الخارج؟

- لا، أعني رحلة داخلية لزيارة القصور التاريخية والحدائق المشهورة.

- هل تظنين أن هذا يلائم سنّك؟ هذه الرحلات قد تكون متعِبة وشاقّة؛ إذ يتعيّن عليك في بعض الأحيان أن تسيري مسافات طويلة.

- صحّتي جيدة، وقد علمتُ أنهم جعلوا لكبار السنّ فرصة للراحة.

- كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أن تعتني بنفسك، فلسنا نريدك أن تصابي بأزمة قلبية أو أن تسقطي في حوض إحدى النافورات!

- اطمئنّي يا شيري، فسوف أعتني بنفسي.

وأعدّت الآنسة ماربل حقيبتها، وذهبت إلى لندن حيث حجزت غرفة في فندق متواضع، ثم ذهبت إلى مكتب الجمعية في الموعد المحدّد. وهناك استقبلتها سيدة لطيفة في نحو الخامسة

والثلاثين من عمرها، وقالت إن اسمها السيدة ساندبورن وإنها التي ستشرف على الرحلة، فقالت الآنسة ماربل: هل أفهم أن رحلتي...؟

وتردّدَت فلم تكمل حديثها، فأحسّت السيدة ساندبورن بحرَجها فقالت: نعم، كان يجب أن أوضّح ذلك في رسالتنا إليك. نعم، لقد دفع السيد رافيل كافّة نفقات رحلتك.

- هل تعلمين أنه تُوفّي؟

- نعم، ولكنه دبّر أمر الرحلة قبل وفاته، فقد قال إنه مريض ولكنه أراد أن يهيئ هذه الرحلة لصديقة عزيزة لم تُتَح لها فرصة للاستمتاع بمثل هذه الرحلات.

* * *

بعد يومين حملت الآنسة ماربل حقيبتها واحتلت مكانها في الحافلة الفخمة التي ما لبثت أن شقّت طريقها إلى خارج لندن، وراحت الآنسة ماربل تتصفّح الكُتيِّب الذي وُزّع على أعضاء الرحلة ويتضمّن أسماء المسافرين والبرامج اليومية والبيانات الخاصة بالفنادق والأطعمة والقصور والحدائق التي تشملها الرحلة، ثم الأماكن البديلة التي يستطيع ارتيادها أو التماس الراحة فيها أولئك الذين يتخلّفون عن إحدى الزيارات بسبب التعب أو الضعف أو الذين يؤثرون الجلوس على السير الشاقّ وارتقاء التلال.

وخلاصة القول أن الرحلة نُظِّمَت بدقة ولباقة على نحو يلائم الجميع. وقرأت الآنسة ماربل أسماء الركّاب وراحت

تتأمّلهم فلاحظت أنهم يتأمّلون بعضهم بعضاً، ولكن ليس بينهم من يعيرها اهتماماً خاصاً، وقد قرأت في قائمة الأسماء الأسماء التالية: السيد بورتر، السيدة جوانا كروفورد، الكولونيل ووكر زوجته، الآنسة إليزابيث تمبل، الأستاذ وانستيد، السيد ريتشارد جيمسون، السيدة لوملي، السيدة بنتهام، السيد كاسبار، السيدة كوك، السيدة بازوا، السيدة جين ماربل.

وكان بين الركاب أربع سيّدات عجائز، منهن اثنتان تسافران معاً وكلتاهما في نحو السبعين من النوع الذي لا يكفّ عن التبرّم والشكوى، فإذا أُجلسَت في مقدّمة الحافلة طالبت بالجلوس في المؤخّرة وإذا أُجلسَت في مكان ظليل طلبت الجلوس في مكان مشمس. وكان مجموع عدد الركّاب فيما عداها هي والسيدة ساندبورن خمسة عشر راكباً، ولما كانت قد أُرسلت في تلك الرحلة بالذات فلا بدّ أن يكون لواحد على الأقل من هؤلاء الركّاب أهمية خاصة، إمّا كمصدر للمعلومات أو لصلة بالقانون أو بإحدى القضايا، أو لأنه مجرم ارتكب جريمة قتل أو يتأهّب لارتكاب جريمة قتل فعلاً.

كل شيء ممكن مع السيد رافيل، ومهما يكن من أمر فهي يجب أن تسجّل ملاحظاتها على هؤلاء الناس، فقد يكون بينهم من يستحقّ الاهتمام من وجهة نظر السيد رافيل، أو مَن لديه معلومات تفيدها أو تفيد السيد رافيل أو تفيد العدالة، سواء كان يعلم ذلك أو يجهله. ثم نظرت الآنسة ماربل إلى العجوزين الأخريَين، وكانتا في نحو الستين، وإحداهما أنيقة تبدو من سيّدات المجتمع وتتكلّم بصوت مرتفع وبلهجة الأمر، وترافقها فتاة في نحو الثامنة عشرة من عمرها تدعوها العمّة جيرالدين،

كما رأت الآنسة ماربل في المقعد الذي على يمينها رجلاً ضخم الجسم عريض الكتفين بارز الفكّين كثيف الحاجبين يجلس بجوار رجل كثير الحركة جمّ النشاط يتكلم الإنكليزية بلكنة أجنبية ويبدي ملاحظاته بالفرنسية والألمانية أحياناً، ونظرَت الآنسة ماربل إلى الرجلين ملياً وقررت أن أوّلهما لا بدّ أن يكون الأستاذ وانستيد وأن الثاني هو السيد كاسبار، ثم تساءلت في نفسها قائلة: تُرى في أيّ موضوع يتحدّثان بهذه الحماسة؟

وأمام هذين الرجلين كانت تجلس سيدة تناهز الستّين أو لعلّها تجاوزتها، ولكنها تحتفظ بمسحة من جمال رصين، وتتميّز بجبين مرتفع وصوت هادئ واضحِ النبرات، فقالت الآنسة ماربل لنفسها: لا شك أنها شخصية لها مركزها، فهي تذكرني بعميدات إحدى كلّيات أُكسفورد.

ثم مضَت الآنسة ماربل في تقييم بقية الركّاب، وكان هناك رجل أمريكي دمث الخلق ومعه زوجته الثرثارة، ورجل إنكليزي في نحو الخمسين يبدو أنه ضابط متقاعد، فلم تتردّد الآنسة ماربل في أن تختار لهما من بين الأسماء الواردة في القائمة الكولونيل ووكر وزوجته. وفي المقعد الذي وراءها كان يجلس رجل طويل نحيف يناهز الثلاثين تدلّ ألفاظه على أنه مهندس، وفي المقاعد الأمامية كانت تجلس امرأتان متوسّطتان في العمر تسافران معاً، إحداهما سمراء نحيفة، الثانية شقراء مليئة الجسم، فخُيّل للسيدة ماربل أنها رأتها من قبل، ولكنها لم تعرف متى وأين. ربما في حفلة شاي أو في أحد القطارات.

بقي بعد ذلك مسافر واحد يجب عليها تقييمه، وكان شابّاً في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره، يرتدي الزيّ المناسب

لأمثاله ويطلق شعره على سجيّته، وقد لاحظَت الآنسة ماربل أنه يبدي اهتماماً بالفتاة التي ترافق العمّة جيرالدين وأن الفتاة تبادله الاهتمام.

وتناول المسافرون طعام الغداء في فندق جميل يطلّ على النهر، ثم قضَوا الساعات التالية في زيارة معالم مدينة بلنهايم، وعندما وصلوا إلى الفندق الذي سيقضون فيه ليلتهم كان كل منهم قد عرف الآخر وتوثّقَت بين الجميع أواصر الأُلْفة، وقد لعبَت السيدة ساندبورن دوراً هاماً في هذا السبيل، وكانت نشيطة إلى أبعد حدود النشاط، فقد كانت لَبِقة في تقريب المسافرين بعضهم إلى بعض، فإذا رأت أحدهم يجلس وحيداً قالت له بصوتها الرقيق: لماذا لا تدَع الكولونيل يصف لك حديقته؟ فلديه مجموعة من الزهور لا مثيل لها.

واستطاعت الآنسة ماربل خلال ذلك أن تعرف أسماء المسافرين، فالرجل ذو الحاجبين الكثيفين هو الأستاذ وانستيد، وزميله الذي يتكلّم الإنكليزية بلكنة أجنبية هو السيد كاسبار كما توقّعَت تماماً، والعمّة جيرالدين الأنيقة هي السيدة بورتر، والفتاة التي ترافقها هي جوانا كروفورد ابنة أخيها، أمّا الشاب الأشعث الشعر فهو أملين برايس، ويبدو أن آراءه التقَت مع آراء جوانا في كثير من الأمور، كحُبّ الفنّ والأدب والنفور من السياسة والاقتصاد وما إلى ذلك، في حين لاذت العجوزان اللتان تسافران معاً بالآنسة ماربل وراحتا تبادلانها الحديث عن الروماتيزم والأطبّاء والعقاقير، وقد فهمَت الآنسة ماربل أنهما قامتا برحلاتٍ كثيرة في أوربّا، وهما السيدة لوملي والسيدة بنتهام وتقيمان في سومرست وتجدان صعوبة في العثور على بستانيّ

ماهر. أمّا السيدتان المتوسطتان في العمر اللتان تسافران معاً فهما الآنسة كوك والآنسة بارو، وكانت الآنسة ماربل على يقين من أنها سَبق أن رأت أولاهما، ولكنها لم تذكر قطّ متى أو أين، وقد خُيّل إليها أنهما يتجنّبانها وأنهما تسارعتا إلى الابتعاد كلّما اقتربت منهما. خمسة عشر شخصاً أحدهم على الأقل له أهميته.

وفي المساء تعمّدت الآنسة ماربل أن تذكر اسم السيد رافيل في حديثها لترى وقعه في نفوسهم، ولكنها لم تلاحظ شيئاً، كما علمَت الآنسة ماربل أن السيدة الجميلة الأنيقة ذات الشخصية الواضحة هي الآنسة إليزابيث تمبل، وأنها كانت تعمل مديرة لإحدى مدارس البنات المشهورة ثم تقاعدَت، وعلمَت أن المهندس النحيل الجسم هو ريتشارد جيسون. وخُيّل إلى الآنسة ماربل أنه لا يوجد بين المسافرين من يمكن أن يكون قاتلاً سوى كاسبار، ولكن لعل سبب ريبتها فيه أنه أجنبي.

أوَت الآنسة ماربل إلى فراشها وهي متعَبة منهَكة القوى. لقد كانت الرحلة ممتعة ولكن محاولة تقييم خمسة أو ستة عشر راكباً لمعرفة ما إذا كان لأحدهم صلة بجريمة قتْل أتعبتها وأنهكت قوَاها، وقبل أن تنام ألقت نظرة أخرى على أسماء المسافرين وهي تقول: السيدة بورتر، هي سيّدة مجتمع شديدة الاعتزاز بنفسها ومركزها ولا يمكن أن تقدِم على ارتكاب جريمة، أمّا جوانا كروفورد فهي مثل عمّتها، والآنسة إليزابيث تمبل شخصية محترمة تشعّ نزاهة ونبلاً، فإذا حدث وارتكبت جريمة فهي ترتكبها خدمة لغرض اجتماعي أو هدف من أسمى الأهداف. ولكن لا، هي سيدة متّزنة العقل والتفكير تعرف دائماً ماذا تفعل ولماذا تفعله، ولا يمكن أن يغريها هدف مهما بلغ

نُبله إلى التورّط في الإثم، ومع ذلك فهي ربما تكون الشخص الذي أراد رافيل أن أقابله في هذه الرحلة لسبب ما.

ثم عادت إلى استعراض المسافرين قائلة: الأستاذ وانستيد. تُرى هل هو عالم أم طبيب؟ هي شخصياً لا تعرف شيئاً عن العلم أو الطبّ ولكن يبدو على الرجل أنه إنسان طيّب القلب، أمّا السيد بتلر وزوجته فهما أمريكيان وليست لهما صلة بأحد تعرفه، والسيدة كوك والسيدة بارو امرأتان عاديّتان، ولكنني واثقة من أنني رأيت أولاهما في مكان ما. أمّا الكولونيل ووكر وزوجته فهما شخصان ظريفان، ويبدو أن الرجل أمضى مدّةَ خِدْمته في الخارج، وأكبر الظن أنهما فوق الشبهات. أمّا الآنسة بنتهام والآنسة لوملي فهما من أبعد الناس عن الجرائم، وإذا كانت لديهما معلومات فهي عن الروماتيزم وتصلّب الشرايين. أمّا السيد كاسبار فهو رجل سريع الانفعال وربما كان خطراً، لذا يحسن وضعه تحت الرقابة. أمّا أملين برايس فيبدو أنه طالب، والعنف من أبرز صفات الطلبة في هذه الأيام، ولكن هل يمكن أن يكون السيد رافيل قد أراد مني أن أتعقّب طالباً، ولكن ذلك يترتب على ما فعله الطالب أو ما يريد أن يفعله أو ما سوف يفعله. يا إلهي! لقد تعبت.

ثم غلبها النعاس فنامت، ورأت فيما يرى النائم أن حاجبَي الأستاذ وانستيد الكثيفين قد سقطا، فاستيقظت على الأثر وخُيّل إليها أن ذلك الحلم قد حلّ اللغز وأن وانستيد لا بدّ أن يكون هو القاتل الذي يريدها رافيل أن تتعقّبه، ولكنها ما لبثت أن اعترفت بينها وبين نفسها بأن سقوط حاجبَي وانستيد لم يحلّ شيئاً. وجفا النوم عينيها فاعتدلت جالسة في فراشها وتناولت دفتر

مذكّرات وكتبَت ما يلي: من المحقّق أن المهمّة التي أُسندَت إليّ تتعلّق بجريمة ما؛ فقد قال لي السيد رافيل ذلك صراحة في رسالته، قال إن لي حاسّة سادسة فيما يتعلّق بالعدالة، وذلك يعني بالضرورة أن يكون لي حاسّة سادسة فيما يتعلّق بالجريمة. إذن فهناك جريمة، وواضح أنها ليست جريمة تجسّس أو سرقة أو تزوير، فهذه ألوان من الجريمة لم تمرّ بي ولا دراية لي بها، كما أن السيد رافيل لا يعرف عنّي سوى ما عرفه خلال إقامتنا في جزيرة سان أونوريه. لقد جمعت بيننا هناك جريمة قتل، ولا بدّ أنه لاحظ وقتئذٍ مبلغ ولعي بإماطة اللثام عن جرائم القتل التي تقع في المنطقة التي أُقيم فيها، وأعتقد أن الوقت قد حان لتحليل المهمّة التي أخذتُها على عاتقي تحليلاً منطقياً، ولكن المعلومات التي وصلتني حتى الآن لا تكاد تذكر شيئاً، ولذلك يجب أن أسأل نفسي سؤالاً صريحاً: ما مهمّتي؟ والجواب: لا أعلم!

ولما كان من الغريب حقاً أن يسند إليّ السيد رافيل وهو من رجال المال والأعمال الناجحين مهمّة مجهولة لا أعرف عنها شيئاً فيجب أن أفهم أنه لا يريد مني سوى أن أعتمد على موهبتي وقوّة ملاحظتي في تنفيذ التعليمات التي يصدرها لي صراحة أو تلميحاً، ومعنى ذلك أن هناك تعليمات سوف أتلقّاها، أمّا المهمّة ذاتها فهي خاصة بالعدالة، إمّا لتصحيح خطأ من أخطاء العدالة أو الانتقام من مجرم بتقديمه إلى العدالة، وذلك يتّفق مع كلمة «عدالة القدَر» التي ذكرها السيد رافيل في رسالته. وقد دبّر السيد رافيل قبل وفاته موضوع اشتراكي في الرحلة رقم ٣٧ من رحلات جمعية القصور التاريخية والحدائق المشهورة، فلماذا؟ ذلك ما يجب أن أتسائل عنه. تُرى هل لمهمّتي صلة بإحدى الحدائق أو أحد القصور التي سنزورها خلال الرحلة؟ لا أعتقد

ذلك، إذن فليس المهمّ هو القصور والحدائق، إنما المهمّ هم الناس الذين يشتركون في الرحلة، وليس بين هؤلاء الناس ما أعرفه شخصياً، ولكن لا بدّ أن بينهم واحداً على الأقلّ له صلة باللغز الذي يطلب منّي حلّه، واحد على الأقل من تلك الجماعة له صلة بجريمة قتل أو بشخص كان ضحيّة في جريمة قتل، أو ربما كان هو نفسه قاتلاً.

وفجأة كفَّت الآنسة ماربل عن الكتابة، وهزّت رأسها مراراً تعبيراً عن رضائها عن هذا التحليل.

* * *

الفصل السادس

حُبّ

في اليوم التالي زاروا قصراً يرجع تاريخه إلى عهد الملكة آن، ولم تكن الرحلة طويلة أو متعِبة، وكان القصر جميلاً وله تاريخ حافل وقد أُعجِب ريتشارد جيمسون المهندس بما رأى، ولما كان من الشبابَ الذين يُستمتَع بسماع أصواتهم فقد راح ينتقل بين الغرف ببطء شديد ويتحدّث عن المواقد والأعمدة والنقوش حديث خبير عليم ويُقرِن كلامه بذكر التواريخ والمراجع.

وأصغى إليه البعض باهتمام في البداية، ثم استولى عليهم الملل فأخذوا ينفضُّون الواحد تلو الآخر، وقد كان أشدّ الجميع تبرّماً هو مرشِد القصر الذي ضايقه أن يغتصب المهندس الشابّ اختصاصه ويستأثر بشرح معالم القصر، فحاول أن يمسك بزمام الموقف ولكن المهندس لم يمكّنه من ذلك. وفي النهاية قام المرشد بمحاولة أخيرة فقال: هذه الغرفة سيداتي وسادتي هي الغرفة البيضاء، وقد وُجدت بها جثة شابّ مطعون بخنجر، وقد حدث ذلك في بداية القرن السابع عشر، وقيل إن السيدة موفات

سيدة القصر كان لها عشيق تعوّد أن يدخل القصر من باب جانبي صغير ثم يرقى الدرَج ويتسلّل إلى هذه الغرفة من باب سرّي بجوار المدفأة، وذلك في غياب الزوج السيد ريتشارد موفات الذي كان وقتئذٍ في زيارة لهولندا، وقيل إن السيد موفات عاد يوماً فجأة فضبط العاشقَين في حالة تلبُّس.

ثم كفّ المرشد عن الكلام ونظر حوله، فسرّه أن يرى اهتمام الموجودين وارتياحهم إلى حديثه بعد أن سئموا المعلومات الفنّية والهندسية التي أُكرِهوا على سماعها، وعندئذ هتفت السيدة بتلر بلهجتها الأمريكية قائلة: يا لها من قصّة طريفة!

ثم اشتدّ اللغط وكثُرَت التعقيبات على القصّة، فانتهزت الآنسة ماربل وبعض السيدات الفرصة فخرجن وهبطن الدرَج إلى الطابق الأرضي، ثم قالت الآنسة ماربل للآنسة كوك والآنسة بارو اللتين كانتا تسيران بجانبها: لقد تعرضَت إحدى صديقاتي ذات يوم لتجربة تمزّق الأعصاب حين خلت قاعة المكتبة في صُبح أحد الأيام فوجدَت بها جثة.

فقالت السيدة بارو: جثة شخص من أفراد الأسرة؟ لا شك أنه أُصيب بأزمة قلبية.

- لا، لقد كانت جريمة قتل، وكانت الجثة لفتاة غريبة ترتدي ثياب السهرة، فتاة جميلة شقراء، ولكن كان من الواضح أن شعرها مصبوغ، وقد ظهر أن...

ثم كفّت عن الكلام ونظرت إلى السيدة كوك وقد تعلّقَت عيناها بخصلة من الشعر الأشقر تتدلّى من تحت المنديل الذي تعصِب به رأسها، وفجأة تذكّرَت لماذا بدا وجه السيدة كوك

مألوفاً ولماذا شعرت بأنها قد رأته من قبل. لقد كان شَعر السيدة كوك بُنّياً داكناً، أمّا في تلك اللحظة فهو أشقر في لون سنابل الحنطة.

في تلك اللحظة لحقت بهن السيدة بورتر بعد أن هبطت الدرَج وقالت بحدّة: الحقّ أنني لم أعُدْ أستطيع الصعود والهبوط أكثر مما فعلت، ثم إن الانتظار في الغُرَف متعِب للغاية، وأعتقد أن حديقة القصر -وإن كانت صغيرة- مشهورة في دوائر فلاحة البساتين، فهلمّوا بنا إليها.

قالت ذلك بلهجتها الحاسمة المألوفة، وكانت النتيجة أن جميع الذين سمعوها خرجوا في أثرها إلى الحديقة. وجلست السيدة بورتر على مقعد بجوار الكولونيل ووكر في حين وقع اختيار الآنسة ماربل على أقرب مقعد فتهالكت عليه وهي تتنهّد بارتياح، وما لبثت أن سمعَت تنهيدة مماثلة صادرة من إليزابيث تمبل التي تبعتها وجلست بجوارها. وقالت إليزابيث: تَفقُّد هذه القصور أمر متعِب ومثير للملل، خاصة حين يطيل الإنسان الإصغاء إلى محاضرة لا نهاية لها في كل غرفة.

فقالت الآنسة ماربل بشيء من السخرية: هذا صحيح، فجميع المحاضرات التي سمعناها اليوم كانت غاية في الطرافة!

- أتظنين ذلك؟

ثم استدارت الآنسة ماربل فتلاقت عيون المرأتين في نظرة يمتزج فيها المرح بالتفاهم المتبادل، فقالت الآنسة ماربل: أتظنينه أنتِ؟

- لا.

وفي تلك اللحظة توثّق التفاهم التامّ بينهما وساد الصمت بينهما لحظة، ثم بدأت إليزابيث تمبل تتحدّث عن الحدائق وعن حديقة ذلك القصر بصفة خاصة فقالت: لقد قام هولمان بتنسيقها بين عامي ١٧٩٨ و ١٨٠٠ ومات وهو في نضرة شبابه، وذلك أمر مؤسف حقاً؛ فقد كان عبقرياً فذّاً.

- من المحزن أن يموت الإنسان وهو في عنفوان شبابه حقاً.

- ربما.

- الذي يموت صغيراً تفوته أشياء كثيرة.

فقالت إليزابيث تمبل: أو يفلت من أشياء كثيرة؛ فأنا بعد أن بلغتُ هذه السنّ أشعر أن الموت المبكر يعني ضياع الكثير من مُتَع الحياة، وقد قضيتُ حياتي كلّها تقريباً بين الشباب أنظر إلى الحياة كوحدة زمنية كاملة سواء طالت أو قصُرت.

فقالت الآنسة ماربل: فهمتُ. أنتِ تعنين أن الحياة مهما كان طولها هي تجربة كاملة، ولكن ألا تشعرين بأن الحياة قد تبدو ناقصة إذا انتهت في وقت مبكّر؟

- بلى، هذا صحيح.

فنظرت الآنسة ماربل إلى بعض الزهور القريبة منها وغمغمت قائلة بلهجة الإعجاب: ما أجملها!

فتحوّلت إليها إليزابيث تمبل وقالت: هل قمتِ بهذه الرحلة

لرؤية القصور أم لرؤية الحدائق؟

- أظن أنني قمتُ بها لرؤية القصور، وهذا لا يمنعني من الاستمتاع بالحدائق. ولكن زيارة القصور بأشكالها المتباينة وأثاثها القديم ولوحاتها الثمينة هي تجرِبة جديدة بالنسبة إليّ.

ثم استطردت قائلة بعد صمت قصير: لقد هيّأ لي هذه الرحلة صديق كريم، وأنا شاكرة له. هل تعوّدتِ أنت الاشتراك في مثل هذه الرحلات الترفيهية؟

- لا، فهذه الرحلة ليست رحلة ترفيهية بالنسبة إليّ.

فحدّقت الآنسة ماربل في وجهها وهمّت بأن تُلقي سؤالاً ولكنها أمسكت، فابتسمت السيدة تمبل وقالت: هل تتساءلين لماذا أقوم بهذه الرحلة؟ حسناً، لماذا لا تحاولين أن تتوقّعي؟

فنظرَت إليها الآنسة ماربل طويلاً ثم قالت: توقّعاتي لن تعتمد على ما عرفتُه وسمعته عنك من أنك شخصية مشهورة وأن مَدْرستك لها صيت ذائع، وإنما تعتمد على ما أراه أمامي، فأنت تبدين في نظري كشخص يقوم برحلة من أجل الحَجّ!

فساد صمت عميق قطعته إليزابيث تمبل أخيراً بقولها: لقد أحسنتِ التعبير. أجل، هي رحلة حَجّ.

فقالت الآنسة ماربل بعد لحظة: الصديق الكريم الذي أرسلني في هذه الرحلة ودفع كل نفقاتها وقد تُوفّي كان يُدعى السيد رافيل وكان واسع الثراء، فهل سمعتِ عنه؟

- جيسون رافيل؟ أنا أعرفه بالاسم فقط، ولكنني لم أعرفه شخصياً ولم أقابله. لقد تبرّع بمبلغ كبير لمشروع كنتُ أهتمّ

به. أجل، لقد كان غنياً كما تقولين، وقد قرأتُ نبأ وفاته في الصحف منذ بضعة أسابيع. إذن فقد كان صديقاً قديماً لك، أليس كذلك؟

- هو لم يكن صديقاً، ولكنني قابلتُه منذ نحو عام فقط في إحدى جُزُر الهند الغربية، ولم أعرف أنه كان واسع الثراء. وقد كان شديد الانطواء على نفسه كما يقول الناس، فهل تعرفين أسرته أو أيّ شخص يستطيع أن...؟

وتمهّلَت قليلاً ثم استطردت قائلة: كم أنا خجِلة لأنني أبدو فضولية!

فصمتت إليزابيث تمبل نحو دقيقة ثم قالت: في وقت ما عرفتُ فتاة كانت بين تلميذاتي في مدرسة فالوفيلد لم تكن تمتّ بقرابة فعلية للسيد رافيل، ولكنها كانت مخطوبة لابنه.

- وهل تزوّجَته؟

- لا.

- لماذا؟

- ربما لأنها كانت فتاة عاقلة بعيدة النظر، ففي الواقع أن الشاب لم يكن من النوع الذي يتمنّاه الإنسان زوجاً لفتاة يهمّه أمرها. لقد كانت فتاة رائعة الجمال وعلى جانب كبير من دماثة الخُلق، ولا أعلم حقاً لماذا لم تتزوّجه.

ثم تنهّدَت واستطردت قائلة: وعلى كل حال لقد ماتت.

- كيف؟

فنظرت إليزابيث تمبل إلى الزهور بضع لحظات، وعندما تكلّمَت بعد ذلك لم تنطق إلا بكلمة واحدة بصوت كرنين الجرس: الحبّ.

- الحب كلمة رهيبة، بل لعلها من أشدّ الكلمات رهبة في هذه الدنيا.

* * *

الفصل السابع

دعوة

استسلمت الآنسة ماربل للتعب فتخلّفَت عن الزيارة التي تضمّنها برنامج ما بعد الظهر، وقرّرت أن تقضي وقتها في الحديقة إلى أن يحين وقت تناول الشاي، وأيّدتها السيدة ساندبورن في ذلك فقالت إنه عين الصواب. وجلست الآنسة ماربل في أحد مقاعد الحديقة وراحت تفكّر في الخطوة التالية وما ينبغي أن تفعله أو لا تفعله، إلى أن عاد زملاؤها فانضمّت إليهم في بهْو الشاي، وحرصَت على أن تجلس على مائدة واحدة مع الآنسة كوك والآنسة بارو، وقد شغل المقعد الرابع حول نفس المائدة السيد كاسبار، ولكن الآنسة ماربل لم تحفل به لعدم إجادته اللغة الإنكليزية.

وبينما هم يتناولون الشاي نظرت الآنسة ماربل إلى السيدة كوك وقالت: لقد كنتُ واثقة من أننا تقابلنا، وعبثاً حاولتُ أن أتذكّر متى أو أين؛ فذاكرتي لم تعُدْ كعهدي بها فيما يختصّ بوجود الأشخاص الذين أقابلهم، ولكنني على يقين من أنني رأيتك في مكان ما.

فهزّت السيدة كوك رأسها بارتياب ونظرَت إلى صديقتها السيدة بارو، وكذلك فعلت الآنسة ماربل، ولكن لم تجد ما تقوله لحلّ ذلك اللغز فقالت ماربل: أنا أقيم في قرية سانت ماري ميد على بُعد اثنَي عشر ميلاً من لوموث، وهي قرية صغيرة ولكنها أخذت في الاتساع؛ فهناك عشرات من المباني الجديدة تقام في أطرافها، فهل اتّفَق لك في وقت ما أن أقمتِ في تلك المنطقة؟

- دعيني أتذكّر. أنا أعرف لوموث جيداً وربما...

- أجل، الآن تذكّرتُ، لقد كنتُ في حديقتي ذات يوم وإذا بك تتحدّثين عبر السور، فقلتِ لي إنك تقيمين في القرية مع إحدى صديقاتك، أليس كذلك؟

- بلى، ما أشدّ غبائي! الآن تذكّرتك. لقد دار الحديث بيننا حول صعوبة العثور على بستاني يعرف مهنته حقّ المعرفة.

- ويومئذٍ ذكرتِ لي اسم الصديقة التي تقيمين معها. ماذا كان اسمها؟

- نعم، كنتُ أقيم مع...

وتردَّدت لحظة كمن يحاول أن يتذكّر، فقالت الآنسة ماربل: كانت تُدعى السيدة ساندرلاند، أليس كذلك؟

- لا، لقد كانت السيدة...

- السيدة هاستنغز؟

وعلى غير انتظار صاح السيد كاسبار قائلاً: هاستنغز؟ لقد

رأيتُ مدينة هاستنغز وكذلك مدينة أيتبورن. هي مدينة جميلة على شاطئ البحر.

فقالت الآنسة ماربل: هذه مصادفة عجيبة! مَن كان يظنّ أننا سنلتقي مرة أخرى بمثل هذه السرعة؟

فقالت السيدة كوك: لا عجب ما دمنا جميعاً من هواة الحدائق.

فقال كاسبار: الزهور جميلة، وأنا أحبّها.

وهنا انطلقت السيدة ماربل تتحدّث عن الزهور حديثاً فنّياً اشتركَت فيه السيدة كوك وأبدت السيدة بارو بعض الملاحظات، أمّا كاسبار فقد غرق في لجّة الصمت.

وعندما خلَت الآنسة ماربل إلى نفسها قبل العشاء أخذت تستعرض حصيلتها من المعلومات الجديدة. لقد اعترفت السيدة كوك بأنها كانت في سان ماري ميد وأنها مرّت ببيتها، وقالت إن ذلك كان مجرّد مصادفة، فهل كانت مصادفة حقاً أم ذهبَت إلى هناك لغرض ما أو أُرسلت إلى هناك عمداً؟ ولكن لماذا؟ ثم قالت لنفسها بصوت مرتفع: أيةُ مصادفة يجب أن تظلّ موضع الاهتمام إلى أن يثبت أنها كانت مجرّد مصادفة.

كانت الآنسة كوك والآنسة بارو تبدوان كأية صديقتين عاديتين تقومان برحلة كما اعتادتا أن تفعلا كل عام، فقد ذهبتا في العام السابق على حدّ قولهما إلى هولندا، وذهبتا في العام الأسبق إلى أيرلندا الشمالية، وهما شابّتان لطيفتان، ولكن السيدة كوك تردّدَت لحظة كما لو كانت تريد إنكار زيارتها للقرية، ثم نظرت إلى صديقتها كما لو كانت تسألها الرأي فيما يجب أن تقوله،

فمن الواضح أن السيدة بارو هي صاحبة الكلمة العليا.

وهزّت الآنسة ماربل كتفيها وقالت لنفسها: ربما كان كل ذلك مجرّد أوهام وخيالات، ولعلهما مجرّد امرأتين ساذجتين لا أهمية لهما.

ثم تناولت برنامج الرحلات وقالت لنفسها: رحلة اليوم التالي ستكون شاقّة وستبدأ في ساعة مبكّرة، وهي تتضمّن السير مسافات طويلة على شاطئ البحر، ألا يحسن بي أن أتخلّف عن هذه الرحلة أيضاً لأقضي يومي في الفندق؟

وفي اليوم التالي في حين كانت الآنسة ماربل في طريقها إلى قاعة الطعام بالفندق لتناول الغداء إذا بسيّدة ترتدي ثوباً من الصوف تدنو منها وتقول لها بصوت ينمّ عن توتّر أعصابها: معذرة، هل أنتِ الآنسة جين ماربل؟

فأجابت الآنسة ماربل بشيء من الدهشة: نعم، هذا هو اسمي!

- أنا أُدعى السيدة جلين، لافينيا جلين، وأُقيم مع شقيقتي على مقربة من هنا، وقد علمنا أنك ستحضرين.

- علمتِ أنني سأحضر؟!

- نعم، فقد جاءتنا منذ ثلاثة أسابيع رسالة من صديق لنا طلب إلينا فيها أن نذكر تاريخ اليوم؛ فهو اليوم الذي سيصل فيه أعضاء الرحلة التي نظّمَتها جمعية القصور التاريخية والحدائق المشهورة، وقد قال إن إحدى صديقاته، أو قريباته لا أذكر تماماً، ستكون بين أعضاء الرحلة.

وبدت الدهشة واضحة على وجه الآنسة ماربل، فقالت السيدة جلين: الصديق الذي أعنيه هو السيد رافيل.

- السيد رافيل؟! هل تعلمين أنه...

- أنه تُوفّي؟ أعتقد أنه تُوفّي بعد كتابة تلك الرسالة بوقت قصير، ولكننا أحسسنا بأن علينا واجباً مقدّساً وهو تنفيذ جميع رغباته، فقد قال لنا في رسالته إنك ربما ترغبين في الإقامة معنا يوماً أو يومين لأن برنامج الرحلة في هذه المرحلة شاقّ للغاية وقد لا يلائم المتقدّمين في السنّ لأنه يتضمّن السير مسافات طويلة وارتقاء بعض التلال والمرتفعات، وأنا وشقيقتاي يسعدنا كثيراً أن تقيمي معنا في بيتنا الذي لا يبعد عن الفندق سوى مسيرة بضع دقائق.

فتردّدت الآنسة ماربل لحظة. لقد أعجبَتها السيدة جلين بجسمها المليء ووجها الصبوح وشدّة حيائها، ثم إن تلك تعليمات السيد رافيل. تُرى هل أراد بتلك التعليمات أن يحدّد لها خطوتها التالية؟ لا بدّ أن يكون الأمر كذلك.

ثم تحوّلت إلى السيدة جلين التي كانت تنظر إليها بقلق وقالت: شكراً لك، يسرّني أن أقيم معكُنّ.

* * *

الفصل الثامن

الشقيقات الثلاث

وقفت الآنسة ماربل أمام النافذة ونظرت إلى الحديقة بعينين لا تريان ما أمامهما؛ فلم يكن مألوفاً ألاّ تُلقي على ما ترى من حدائق نظرة رضا أو نظرة استنكار، ولكن الحديقة التي امتدّت أمامها تلك المرة كانت بقعة أرض مهمَلة لم يُبذَل فيها جهد أو مال منذ سنوات عديدة، كذلك كان البيت وكان الأثاث، فجميع الدلائل تدلّ على أن ذلك البيت الذي يطلقون عليه اسم «البيت القديم» لم يحظَ بشيء من العناية أو الاهتمام منذ وقت طويل رغم ما يبدو فيه من متانة البناء وجمال التنسيق. لقد تداولته أجيال من البنين والبنات رحلوا جميعاً فانتهى أمره إلى ذلك كما فهمَت الآنسة ماربل من كلام السيدة جلين وهي ترشدها إلى الغرفة التي خُصّصَت لإقامتها عند السيدة جلين وشقيقتها في ذلك البيت الذي ورِثنَه عن عمٍّ لهنّ، وقد جاءت السيدة جلين للإقامة فيه مع أختَيها بعد أن تُوفّي زوجها، ثم مرّت الأعوام وتقدّمَت بالشقيقات الثلاث السنّ وقلّ إيرادهن فعجزن عن استخدام من يُعنَى بأمر البيت والحديقة.

كذلك فهمَت الآنسة ماربل من حديث السيدة جلين أنها الأخت الوسطى وأنها الوحيدة التي تزوّجت، أمّا أختاها الكبرى والصغرى فقد ظلّتا آنستين، ولم يكن في البيت أيّ أثر من آثار الأطفال، لا كُرَةَ ولا مقعدَ صِغار ولا عربةَ أطفال. كان البيت بيت شقيقات ثلاث فحسب، ولكنهن ثلاث شقيقات رقيقات مهذّبات من الطراز الذي كانت الآنسة ماربل في صِغَرها تصفهنّ بأنهن سيّدات كريمات مال عليهن الدهر، ولكن السيدات الكريمات في تلك الأيام قلّما تنقطع بهن الأسباب إلى حدّ التداعي تحت وطأة الفقر؛ فهن يتلقّين المعونات من الحكومة والجمعيات وأقاربهن الأغنياء أو من أشخاص مثل السيد رافيل، ووجودها في تلك اللحظة في ذلك البيت القديم يؤكّد تلك الصلة بين السيد رافيل والشقيقات الثلاث.

لقد علم الرجل قبل أربعة أو خمسة أسابيع وعلى وجه التقريب في اليوم الذي سيموت فيه فرسم خطّته بنفس الدقّة التي يتوخّاها في عَقد صفقاته المالية، وليس ثمة شك في أن الرجل كانت له مشكلة خاصة تضايقه وتزعجه، مشكلة لا يستطيع حلّها بنفسه لأنه مريض طريح الفراش، ولا ينفع في حلّها وفرة المال أو مهارة المحامين.

وقالت الآنسة ماربل لنفسها: ولهذا فكّر فيّ، فكّر في أن لي من الصفات ما يؤهّلني لحلّ مشكلته، ولكن ما مؤهلاتي؟ هواية فِلاحة البساتين ومعالجة الجرائم التي تقع في محيطها؟ من المؤكّد أن مشكلته لم تكن مشكلة حدائق، هي جريمة إذن، ولكن أين وقعت تلك الجريمة؟ لقد بدأ السيد رافيل بتدبير الأمر مع المحامين، وقام المحامون بما هو مطلوب منهم فأرسلوا

خطابه إليّ في الوقت المناسب، وكان الخطاب مكتوباً بعناية ولكنه لم يوضّح المشكلة ولم يحدّد مهمّتي. ثم لماذا لم يرسل الرجل في طلبي قبل موته ليحدّثني عن مشكلته؟ ولكن لا؛ فذلك يتعارض مع طبيعته، فهو لا يحب أن يرجو أحداً، وقد تعوّد أن يأمر وأن يدفع ثمن الخدمات التي تُقدَّم إليه، وإذا كان قد حدّد لمهمّتي ذلك المبلغ الضخم فقد فعلَ ذلك لإثارة فضولي لا لإغرائي، ولعله لم يذكر مشكلته بالتفصيل حتى لا أتأثّر بوجهة نظره فيها، فالإنسان لا يستطيع أن يتحدّث عن أمر إلى شخص آخر دون أن تفلت منه كلمة أو عبارة تعبّر عن وجهة نظره الخاصة، وفضلاً عن ذلك من المحتمل ألاّ يكون السيد رافيل قد اطمأنّ إلى صواب رأيه في المشكلة، خاصة وهو مريض مرضاً ربما أشفق منه على سلامة تفكيره وحسن تقديره للأمور، ولذلك آثر أن يترك لي الحرية لأفكّر كما أشاء وأستنتج ما أشاء.

والآن نعود إلى جوهر الموضوع، هي في البيت القديم حيث تقيم الأخوات الثلاث، كلوتيلد، ولافينيا (السيدة جلين) وأنثيا. وقد دبّر السيد رافيل أمر زيارتها لهذا البيت قبل بضعة أسابيع من وفاته، ولعل ذلك كان أول إجراء اتخذه بعد أن فرغ من إصدار تعليماته إلى محاميه، ومعنى ذلك أنها أُرسلَت إلى ذلك البيت لغرض معيّن، فهل للشقيقات الثلاث صلة باللغز الذي يُراد منها حلّه؟ أو هل في ذلك البيت من الآثار أو الأدلّة ما يمكن أن يرشدها إلى اللغز وحلّه؟ ذلك ما كانت تفكّر فيه الآنسة ماربل وهي تطلّ من نافذة غرفتها وتنظر إلى الحديقة بعينين لا تبصران ما أمامهما.

ثم طُرق الباب ودخلت السيدة جلين وقالت: أرجو أن تكون الغرفة قد أعجبتك. هل أساعدك في إخراج ثيابك من الحقيبة وإعدادها؟ هناك امرأة لطيفة تتردّد علينا للمساعدة في أعمال البيت لكنها لا تحضر إلا صباحاً.

- شكراً لك يا سيدة جلين، فأنا لن أُخرِج من ثيابي إلا ما قد أحتاج إليه خلال إقامتي القصيرة هنا.

- لقد خطر لي أن أدُلّك على الدرَج؛ فالبيت مترامي الأطراف وبه درَجان، وكثيراً ما يضلّ فيه الغرباء طريقهم.

- هذا كرم منك يا سيدة جلين.

- إذن أرجو أن تهبطي إلى الطابق الأرضي كي نتناول معاً قدحاً من الشراب قبل الغداء.

فوافقَت الآنسة ماربل وتبعَت مُضيفتها، وقد لاحظت وهي تسير خلفها أنها أصغر منها بكثير، فهي لا تتجاوز الخمسين من عمرها. وأخذت الآنسة ماربل تهبط الدرَج بحذر مستعينة في ذلك بالحاجز الخشبي، ثم هتفت بإعجاب قائلة: هذا بيت جميل حقاً! وأعتقد أنه بُني نحو عام ١٧٠٠، أليس كذلك؟

- لقد بُني سنة ١٧٨٠.

وقادت جلين ضيفتها إلى قاعة الاستقبال، وهي غرفة فسيحة بها بضع قطع ثمينة من الأثاث تنتمي إلى عصور مختلفة، وكانت كلوتيلد وأنثيا تنتظران هناك، فما إن أبصرتا الآنسة ماربل حتى أسرعتا لاستقبالها، فقدّمَت إليها إحداهما مقعداً وقدّمَت إليها الأخرى كأسً من شراب الكرز.

قالت كلوتيلد: أنا أؤثره على سواه بسبب آلام الظهر.

وكانت كلوتيلد كبرى الشقيقات الثلاث طويلة القامة مهيبة الطلعة سمراء البشرة قصيرة الشعر، أمّا الصغرى أنثيا فكانت نحيفة وشعرها الأشقر الذي خطّه الشيب يتدلّى على كتفَيها بلا اعتناء. وهكذا وجدَت الآنسة ماربل نفسها وجهاً لوجه أمام الشقيقات الثلاث كلوتيلد ولافينيا وأنثيا.

كانت كلوتيلد وسيمة أنيقة، وكانت لافينيا بسيطة المظهر ضاحكة السنّ، أمّا أنثيا فكانت لها عينان رماديتان واسعتان وجَفن يضطرب بين الفينة والفينة بحركة عصبية، وكانت لها طريقة عجيبة في النظر يميناً يساراً ثم إلى الخلف من فوق كتفها كما لو كانت تشعر بأن هناك من يراقبها طوال الوقت. وتجاذب النساء الأربع أطراف الحديث، ثم انصرفت لافينيا إلى المطبخ، ويبدو أنها كانت أكثر الشقيقات اهتماماً بشؤون البيت، ولكن الحديث استمرّ دونها فتناول قصّة البيت القديم، فقالت كلوتيلد إنه كان مِلْكاً لعمّها وعندما تُوفّي انتقلَت مِلْكيّته إليها هي وأختَيها. واستطردت قائلة: كان لعمّي ابنٌ وحيد ولكنه قُتل في الحرب، ونحن آخر سُلالة الأسرة.

فقالت الآنسة ماربل وهي تنظر حولها: هذا بيت جميل شُيّد بعناية.

فقالت كلوتيلد: أجل، ولكننا نتمنّى لو كان أقلّ اتساعاً.

فقالت الآنسة ماربل: الواقع أن الترميمات تكلّف كثيراً هذه الأيام.

- لقد رأينا بعض أجزاء منه تتداعى تحت أبصارنا دون أن

نستطيع أن نفعل شيئاً، وكان في الحديقة بيت زهور كبير للزهور والفاكهة، ولكنه انهار فلم يبقَ منه إلا الحطام.

فقالت أنثيا: لقد كانت تنمو به أنواع من الأعناب والفاكهة لا مثيل لها، كم أنا حزينة لانهياره! ثم جاءت الحرب فلم نستطع استخدام بستانيّ للعناية بالحديقة.

وتنهّدت الأختان كمن يرى الزمن يمرّ والظروف تتغيّر ولكن ليس إلى الأفضل، فقالت الآنسة ماربل لنفسها: يوجد في هذا البيت حُزن لا يمكن إزالته؛ فقد تغلغل في الأعماق.

ومرّت بجسدها رعدة.

* * *

الفصل التاسع

الحديقة

كان طعام الغداء جيداً، وقد تناولته الآنسة ماربل ومُضيفاتها في قاعة فسيحة تزيّن جدرانها صوَر بعض أفراد الأسرة، ثم دار الحديث عن الرحلة فقالت كلوتيلد: هل كان السيد رافيل صديقاً قديماً لك؟

– ليس بمعنى الكلمة. لقد قابلتُه لأول مرة خلال رحلة إلى جُزُر الهند الغربية، وأعتقد أنه قد قام بها للاستشفاء.

فقالت أنثيا: هذا صحيح؛ فقد كان مشلولاً خلال السنوات الأخيرة.

فقالت الآنسة ماربل: لقد أُعجبتُ بنشاطه وقوّة مقاومته. لقد كان يعمل طوال النهار ولا يكفّ عن إملاء الرسائل وإرسال البرقيات، ولم يستسلم قطّ للمرض.

فقالت لافينيا: نحن لم نرَه كثيراً خلال الأعوام الخيرة، ولكنه كان يذكرنا في أعياد الميلاد دائماً.

وسألت أنثيا: هل تقيمين في لندن يا آنسة ماربل؟

- لا، أنا أقيم في الريف، في قرية صغيرة بالقرب من لوموث تبعد عن لندن نحو خمسة وعشرين ميلاً.

ثم استطردت قائلة: أظن أن السيد رافيل كان يقيم في لندن، فقد لاحظتُ العنوان على سجلّه في دفتر الفندق بجزيرة أونوريه، وهو ميدان أيتون أو ميدان بلجريف، لست أذكر تماماً.

فقالت كلوتيلد: كان له كذلك بيت في كنث اعتاد أن يدعو إليه أصدقاءه من رجال الأعمال، ولكننا لم نزُره هناك قطّ، كنا نراه فقط كلّما ذهبنا إلى لندن، وكان يحتفي بنا ويكرم وِفادتنا.

فقالت الآنسة ماربل: الحق أنه كان كرماً منه أن يقترح عليكنّ استضافتي هنا، فما كنتُ أتوقّع من رجل أعمال كثير المشاغل أن يتذكّر أمراً كهذا.

- لقد دعونا من قبل أصدقاء له كانوا في مثل هذه الرحلة، والواقع أن هذه الرحلات مهما بلغ من دقة برامجها لا يمكن أن تلائم الجميع، فمثلاً الشباب لا يضيرهم أن يسيروا مسافات طويلة أو أن يرقوا التلال والمرتفعات، أمّا كبار السنّ الذين لا يستطيعون ذلك فَهُم يفضّلون البقاء في الفنادق، والفنادق هنا لا تتوفّر فيها أسباب الراحة، وأنا واثقة من أن رحلة اليوم ما كانت لتلائمك، وكذلك رحلة الغد التي أعتقد أنها ستكون إلى إحدى الجُزُر في قارب تتقاذفه الأمواج.

فقالت لافينيا: زيارة القصور ذاتها متعِبة للغاية.

فقالت الآنسة ماربل: أجل، هي متعِبة، وأعتقد أنه ما كان ينبغي عليّ أن أشترك في مثل هذه الرحلات، ولكن المباني

القديمة والأثاث النادر واللوحات الثمينة كلّها مغريات ويتعذّر مقاومتها.

كان كل شيء ممتعاً وطبيعياً، ولكنها لسبب ما كانت تشعر بأن أعصابها متوتّرة وبأن هناك شيئاً غير طبيعي. وبعد الطعام رافقتها أنثيا في نزهة بالحديقة، ولكنها كانت نزهة مُحزِنة؛ فكل شيء حولها يدلّ على أنه كانت هناك في يوم ما حديقة يانعة معنيّ بها وحقل لزراعة الخضر التي يحتاج إليها البيت. وسارت أنثيا بجوارها والهواء يعبث بشعرها الطويل، ثم راحت تتكلّم بلهجة عصبية وعبارات مقتضبة فقالت: أظن أن لديك حديقة جميلة.

فأجابت الآنسة ماربل: لكنها صغيرة جداً.

وسارتا في طريق مليء بالأعشاب، ثم انتهيتا إلى شبه تلّ صغير قائم بجوار جدار السور، وهناك قالت أنثيا بحزن: ها هو ذا بيت الزهور حيث كانت توجد أشجار الكروم. أجل، كانت إحداها تنتج أعناباً بيضاء صغيرة شديدة الحلاوة، وأخرى تنتج أعناباً زكية الرائحة.

- ذلك النوع الذي يطلَق عليه اسم شيري باي؟ أجل، إن رائحته كالعطر. ولكن هل سقطَت هنا قُنبلة أطاحت ببيت الزهور؟

- لا، لم تسقط قنابل في هذه المنطقة، ولكن البيت تداعى وانهار، ولم يكن لدينا المال الكافي لترميمه أو إعادة بنائه، وحتى لو أعدنا بناءه لما استطعنا صيانته والإفادة منه لعدم وجود البستاني الماهر. انظري كيف نبت العشب بين الأنقاض!

- أجل، العشب والنباتات المتسلّقة السريعة النموّ تتكاثر

بسرعة وتعمل على إخفاء المباني المتهدمة والمناظر الكريهة، ولكنها إلى جانب ذلك تقتل كل ما حولها من زهر أو نبات. هل كان بيت الزهور كبيراً؟

فأجابت أنثيا بحزن: نعم، وكان حافلاً بأشجار الخوخ.

قالت ذلك وأشاحت بوجهها وسارت في طريق متعرّجة بمحاذاة الجدار، ثم أسرعت الخطى كمن يريد الفرار من شيء مقيت حتى عجزت الآنسة ماربل عن اللحاق بها. تُرى هل كانت الفتاة تشعر بالخجل مما آل إليه أمر بيت الزهور؟

قالت الفتاة: لدينا حقل للزهور التي لا تحتاج إلى عناية بستاني متمرّس.

ثم سألت فجأة: هل تقومين دائماً بمثل هذه الرحلة؟

- أتعنين رحلة جمعية القصور التاريخية والحدائق المشهورة؟

- نعم، بعض الناس يقومون بها كل عام.

- ولكن تكاليفها باهظة وفوق ما أطيق، وهذه الرحلة هدية من صديق لي بمناسبة عيد ميلادي.

- كنتُ أتساءل عمّا يحملك على الاشتراك في رحلة متعِبة كهذه، ولكن ما دمتِ قد تعوّدتِ السفر إلى جُزُر الهند الغربية وأمثالها...

فقاطعتها الآنسة ماربل: وهذه أيضاً كانت منحة من ابن أخي.

- حقاً؟!

- في الحقيقة أنا لا أدري ماذا يكون من أمرنا نحن العجائز من دون الشباب! فهُم كرام ظرفاء، أليسوا كذلك؟

- في الحقيقة لا أعلم؛ فليس لنا أقارب في سنّ الشباب.

- أليس لأختك لافينيا أولاد؟

- لا، وربما كان ذلك أفضل.

فقالت الآنسة ماربل لنفسها وهي تسير مع مُضيفتها في الطريق إلى البيت: تُرى ماذا تعني بذلك؟

* * *

الفصل العاشر

الأيام التي مضت

في منتصف الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي طُرِق باب الآنسة ماربل ودخلت امرأة متقدّمة في السنّ تحمل صينية عليها إناء شاي وكوب ووعاء لبن وبعض الخبز والزبد. قالت المرأة بصوت مرح: طاب صباحك يا سيدتي. لقد أعددتُ لك الشاي. هذا يوم صحْو جميل؛ فها أنا ذا أرى أنك أزحت الستار عن النافذة. هل نمتِ جيداً؟

فأجابت الآنسة ماربل وهي تضع بجانبها كتاباً كانت تقرؤه: نعم، شكراً.

- زملاؤك سيقومون اليوم برحلة شاقّة. لقد أحسنتِ صنعاً بعدم مرافقتهم.

- الواقع أنني سعيدة بالبقاء هنا، وقد كان كرماً من السيدة جلين، لافينيا، أن تدعوني للإقامة معها هي وأختَيها.

- وكان ذلك خيراً لهن أيضاً، فوجود الضيوف يسرّي عنهن؛ فالبيت كئيب في هذه الأيام.

قالت ذلك ونظّمت بعض قطع الأثاث ثم وضعت زجاجة مليئة بالماء الدافئ وسط حوض صغير على حافّة المدفأة واستطردت قائلة: يوجد حمّام في الطابق الثاني، ولكنني جئتك بماء دافئ حتى لا تتكلّفي عناء صعود الدرَج.

- شكراً لك. يُخيّل إليّ أنك تعرفين هذا البيت جيداً.

- لقد حضرتُ إليه وأنا فتاة صغيرة وعملتُ فيه كوصيفة، وكان هناك وصيفتان وثلاثة خدم وطاهٍ وخادمة مطبخ، وقد كان ذلك في عهد الكولونيل، وكان لديه كذلك عدد من الخيول وسائس، تلك أيام لن تعود. لقد كانت السعادة ترفرف على هذا البيت في تلك الأيام، ثم جاءت الأحزان وتوالت، فماتت زوجة الكولونيل في ريعان شبابها وقُتل ابنه في الحرب وتزوّجت ابنته الوحيدة ورحلت مع زوجها إلى نيوزيلندا وماتت في أثناء الوضع، وبقي الكولونيل هنا وحيداً حزيناً، وأُهمِل البيت حتى تداعى، ثم مات وترك البيت لبناتِ أخيه الآنسة كلوتيلد وأختَيها، وقد جاءت الآنسة كلوتيلد والآنسة أنثيا للإقامة فيه أولاً، ثم انضمّت إليهما الآنسة لافينيا بعد وفاة زوجها.

وتنهّدَت العجوز وهزّت رأسها بحزن ثم استطردت قائلة: ولم يكن في استطاعتهن عمل شيء لصيانة البيت أو الحديقة. كل هذا يدعو للأسف حقاً، وخاصة بالنسبة إلى الشقيقات الثلاث، فهن من أنبل السيدات وأكرمهن. ربما كانت الآنسة أنثيا شخصية مهزوزة، ولكن كلوتيلد تخرّجت من الجامعة وهي متوقّدة الذكاء وتتكلّم ثلاث لغات، أمّا السيدة جلين فهي على جانب عظيم من الظرف ودماثة الخُلق، وقد ظننتُ عندما جاءت أن الأمور ستتحسّن، ولكن لا أحد يعلم ما يخبّئه القدَر. أنا أشعر أحياناً

كأن اللعنة حلّت على هذا البيت.

فنظرَت الآنسة ماربل إليها متسائلة فقالت العجوز: لقد توالت الكوارث واحدة بعد أخرى، أولاً أُسقطت إحدى الطائرات في إسبانيا وقُتل ركّابها جميعاً وبينهم إحدى صديقات الآنسة كلوتيلد وزوجها، وكان لتلك الصديقة وزوجها ابنة في المدرسة لم تذهب مع أبوَيها فنجَت من الموت، وقد جاءت بها الآنسة كلوتيلد إلى هذا البيت لتقيم معها واصطحبتها في رحلات إلى إيطاليا وفرنسا وعاملتها كابنتها، وكانت فتاة سعيدة لطيفة لا يتصوّر إنسان أن يحدث لها ما حدث.

- وماذا حدث لها؟ وهل حدث هنا؟

- لا، حمداً لله على أنه لم يحدث هنا، وإن كان بوسعك أن تقولي إنه بدأ هنا؛ فهنا قابلَته لأول مرة وكان في هذه المنطقة، وكانت الشقيقات الثلاث يعرفن أباه، وهو رجل غنيّ جداً، فجاء لزيارتهن وكانت تلك هي البداية.

- ووقع كل منهما في حبّ الآخر، أليس كذلك؟

- بلى، لقد أحبّته من أول نظرة، فقد كان شابّاً وسيماً حلو الحديث، لا يمكنك أن تتصوّري بحال أنه...

- هل انتهت قصّة الحبّ نهاية سيئة وانتحرت الفتاة؟

- انتحرت؟! من قال لك هذا؟ لقد كانت جريمة قتل صارخة، فقد خُنقَت المسكينة وهُشِّم رأسها وشُوِّهت معالم وجهها. وقد ذهبَت الآنسة كلوتيلد للتعرّف عليها فكانت صدمة لم تبرأ منها حتى الآن، وقد وُجدت الجثة على بُعد ثلاثين

ميلاً من هنا وسط الأعشاب في محجر مهجور، وقيل إن تلك الجريمة لم تكن أُولى جرائم الشباب وإنه قُتل بضع فتيات قبل ذلك، وكانت المسكينة قد اختفَت منذ ستة أشهر، وقد بحثت عنها الشرطة في كل مكان إلى أن وجدوا جثتها في المحجر. تبّاً لذلك الفتى الشرير! لقد كان شيطاناً رجيماً منذ نعومة أظفاره. والآن يقولون إن هناك مرضى بعقولهم يرتكبون الجرائم مُكرَهين ولا يُسألون عمّا يفعلون، أمّا أنا فأقول إن هذا هراء وإن القاتل يجب أن يلقى جزاءه في جميع الأحوال.

- وماذا فعلوا بذلك الشاب؟

- أظن أن عقوبة الإعدام كانت قد أُلغيَت أو أنه نجا من المشنقة لصغر سنّه، ومهما يكن من أمر فقد وجدوه مذنباً وأرسلوه إلى إحدى الإصلاحيات.

- ماذا كان اسم ذلك الشاب؟

- كان اسمه مايكل ولا أذكر لقبه. لقد حدثت الجريمة منذ عشرة أعوام، ولا يمكن أن أذكر لقبه بعد كل تلك السنوات، هو كالأسماء الإيطالية وهو يقترن في ذهني باسم صورة، أو فنّان... أفاييل... أو رافي...

- مايكل رافيل؟

- هو ذاك، وقد أُشيع أن أباه واسع الثراء وأنه استطاع تهريبه من السجن، ولكنني أعتقد أن ذلك كان مجرّد إشاعة.

- إذن الفتاة لم تنتحر وإنما قُتلت. لقد قالت إليزابيث تمبل إن الحبّ كان السبب في موت الفتاة، وذلك صحيح إلى حدّ ما؛

فقد أحبّت الفتاة قاتلاً، وبسبب هذا الحبّ لقيَت حتفها.

* * *

في ذلك الصباح عندما هبطَت الآنسة ماربل إلى الطابق الأوّل لم تجد واحدة من مُضيفاتها، ربما لأن الوقت كان مبكّراً، ففتحَت الباب وأخذت تطوف بالحديقة، ليس لأنها كانت مُعجَبة بها وإنما لأنها أحسّت إحساساً غامضاً أن فيها شيئاً جديراً بالملاحظة، شيئاً يمكن أن يوحي إليها بفكرة، ولكنها لا تعرف بالتحديد ما هو، ولم يكن يهمّها في ذلك الوقت أن تقابل إحدى الشقيقات؛ فقد كانت بحاجة إلى الهدوء كي تفكّر فيما سمعته من الخادمة العجوز جانيت، وقد وجدت أحد أبواب الحديقة مفتوحاً فخرجَت منه وسارت في شارع القرية، ومرّت ببعض الحوانيت الصغيرة فوجدَت نفسها وجهاً لوجه أمام كنيسة القرية فدخلتها.

كانت كنيسة قديمة يرجع تاريخها إلى العهد الفكتوري، ولكن يد الإصلاح امتدّت إليها في وقت ما فأقامت ما تداعى من جدرانها. جلست الآنسة ماربل على أحد المقاعد وراحت تفكّر، تُرى هل أمسكت بطرف الخيط أخيراً؟ لقد بدأت الأمور تتصل وتستقيم، ولكن بطريقة أبعد ما تكون عن الوضوح، فمنذ عشرة أعوام قُتلت إحدى الفتيات واتهم شابّ بقتلها، ثم أُسدل الستار على المأساة وانتهى الأمر. لا لغز ولا مشكلة، فماذا في استطاعتها أن تفعل؟ وماذا يريدها السيد رافيل أن تفعل؟ لا بدّ أن تحدّثها إليزابيث تمبل بالمزيد. لقد تحدّثت عن فتاة كانت مخطوبة لمايكل رافيل، ولكن هل ذلك صحيح؟ لعل الأصحّ

هو القصة التقليدية التي أَلِفَت سماعها في قريتها، وهي أن الفتاة تلتقي بالشاب وتتطوّر العلاقة وتتورّط الفتاة فتحمل سِفاحاً، ثم تطلب إلى الشاب أن يتزوّجها ولكنه لا يريد الزواج ولعله لم يفكّر في الزواج أو لعل أباه لا يوافق على هذا الزواج، وتصرّ أسرة الفتاة على ضرورة إصلاح الموقف، ويكون الشاب قد سئم الفتاة أو يكون قد تعرّف إلى فتاة أخرى، فيقرّر حسم الموقف بطريقة سريعة وحشية فيخنق الفتاة ويهشّم رأسها حتى لا يتعرّف عليها أحد. تلك هي القصة التقليدية المألوفة.

وعندما وصلت الآنسة ماربل في تفكيرها إلى هذا الحدّ نهضت واقفة وأرسلت حولها نظرة أخيرة. وكان الهدوء شاملاً ولا شيء حولها يدعو إلى التفكير في الشرّ أو الجريمة، خلافاً لما أحسّت به في البيت القديم وما رابها في قلق أنثيا وحزنها ونظراتها التي تنمّ عن الخوف والجزع. تُرى هل تعرف الشقيقات الثلاث شيئاً؟ وما هو؟ لا بدّ أن تحاول الاتصال بإليزابيث تمبل غداً كي تعرف منها المزيد.

وكان الجديد الذي عرفته هو المأساة القديمة التي روتها جانيت، ولكن ما أكثر المآسي التي تعيها ذاكرة الخدم في القرى ويتناقلها جيل بعد جيل! وعندما اقتربت من البيت وجدت السيدة جلين في انتظارها بالباب، وما إن أبصرتها حتى أسرعت لاستقبالها وهي تهتف قائلة: أهذه أنت؟ كنت واثقة أنك خرجت للنزهة. لقد أشفقت عليك من التعب.

قالت الآنسة ماربل: تجوّلت قليلاً ثم دخلت الكنيسة.

- لا شك أنك لم تجدي فيها ما يلفت النظر؛ فقد أفقدتها

الترميمات المتتالية مميزاتها المعمارية القديمة.

- الواقع أنني لم أهتمّ بدراسة طرازها، وإنما ذهبت إليها لأنني أعلم أن الكنائس هي محوَر الحياة الاجتماعية في القرى. هل نشأتِ في هذه المنطقة يا سيدة جلين؟

- لا، لقد كان أبي ضابطاً في المدفعية وكنا نقيم في هراسلي على بُعد ثلاثين ميلاً من هنا، وكان أبي يأتي بنا أحياناً إلى هذا البيت لزيارة عمّي، ثم انتقلَت شقيقتاي إلى هنا بعد وفاة العمّ، أمّا أنا فقد كنتُ وقتئذ في الهند مع زوجي الذي تُوفّي منذ أربعة أو خمسة أعوام، وعندما عُدت من الهند أقمت في كوخ صغير أملكه بالقرب من لندن، ولكنني شعرتُ بالقلق على أختيّ ووجدت أنه من الضروري أن أكون على مقربة منهما.

- هل قلقتِ عليهما بسبب حالتهما الصحّية؟

- لا؛ فقد كانت كلوتيلد قوية البنْية دائماً، ولكن أنثيا تثير قلقي أحياناً؛ فهي غامضة تشرد أحياناً فلا تدري أين هي.

- ذلك ما يفعله القلق بالناس، وما أكثر ما يقلق الناس في هذه الأيام!

- لا، لا، هي ليست قلقة ولكنها مهمومة، فهي تذكر الحديقة كما كانت في عهدها الغابر، وتريد أن تنفق عليها لتعيدها إلى حالتها الأولى، وكثيراً ما حاولَت كلوتيلد إقناعها بأن ظروفنا المالية لا تسمح بذلك في الوقت الحاضر ولكنها لا تفتأ تتحدّث عن بيت الزهور وأشجار الخوخ والأعناب ذات الرائحة الزكية. هل حدّثتك عنها؟ فهي لا تبرح ذاكرتها، ولكن كلوتيلد لا تريد أن تسمع شيئاً عن بيت الزهور أو أشجار الخوخ.

فقالت الآنسة ماربل وهي تدخل البيت مع مُضيفتها: أظن أنني يجب أن ألحق بالرحلة غداً، فهم سيتحرّكون في الساعة التاسعة صباحاً حسب ما فهمت.

- أرجو ألاّ تكون رحلة متعِبة.

- أظن أنني سأكون في خير حال بعد الراحة التي أخذتها.

* * *

الفصل الحادي عشر

الحادث

تناولَت الآنسة ماربل شاي الصباح في منتصف الساعة الثامنة حتى يتاح لها الوقت الكافي لإعداد حقيبتها، وكانت في طريقها لإغلاق الحقيبة حين سمعَت طرقات سريعة على باب غرفتها، ثم دخلَت كلوتيلد وهي بادية الاضطراب فهتفت قائلة: آه يا آنسة ماربل! لقد جاء شاب من رفاقك في الرحلة يُدعى أملين برايس يقول إنهم أرسلوه لمقابلتك.

- أنا أذكره. هل هو شاب في مقتبل العمر؟

- نعم، شاب من الجيل الجديد بشعره الطويل وثيابه ذات الألوان الصارخة، ولكنه جاء ليخبرك خبراً سيّئاً، فقد وقع حادث.

فدهشَت الآنسة ماربل وهتفت قائلة: هل وقع حادث للحافلة؟ هل أُصيب أحد؟

- لا، ليس للحافلة. لقد وقع الحادث بعد ظهر أمس خلال الرحلة، فقد كانت الريح عاصفة وكان أعضاء الرحلة في طريقهم لشهود البرج التذكاري فوق تلّ بونافنشر، ويبدو أنهم تفرّقوا فارتقى بعضهم التلّ مباشرة وسار البعض الآخر في الطريق

المألوف على السفح للوصول إلى القمّة، ولم يكن هناك من يرشدهم أو يوجّههم، ثم حدث أن انهارت بعض الصخور من قمّة التلّ فأصابت واحداً ممن كانوا على السفح.

- ربّاه! هذا مؤسِف حقاً، ولكن مَن الذي أصيب؟

- لقد فهمتُ من الشاب أنها سيدة تُدعى الآنسة تمبل.

- إليزابيث تمبل؟! يا إلهي! لقد كانت بجواري في الحافلة، وهي شخصية معروفة، فقد كانت مديرة لإحدى المدارس.

فقالت كلوتيلد: أنا أعرفها جيداً، فهي كانت مديرة مدرسة فالوفيلد المشهورة، ثم تقاعدَت منذ عام أو عامين وحلّت محلّها مديرة شابّة ذات آراء تقدّمية، ولكن الآنسة تمبل ليست عجوزاً، فما زالت على جانب عظيم من النشاط، كما أنها تهوى الرياضة والرحلات وتسلّق الجبال. لم يخطر لي ببالٍ أنها في هذه الرحلة! أنا لم أعرف التفصيلات ولكن أرجو ألاّ تكون إصابتها خطيرة.

فقالت الآنسة ماربل وهي تلقي نظرة أخيرة على الحقيبة: لقد فرغت من هذه الحقيبة فهيّا بنا.

فقالت كلوتيلد وهي تتناول الحقيبة: دعيني أحملها عنك، وكوني على حذر وأنت تهبطين الدرَج.

ووجدت الآنسة ماربل أملين برايس في انتظارها بالباب، وكان أشعث الشعر أكثر من المعتاد يرتدي سترة من الجلد وبنطالاً أخضر، فقال وهو يشدّ على يدها: هل علمتِ بالحادث المؤلم الذي وقع للآنسة تمبل؟ أنا لا أعرف كيف حدث! ولا أعلم أكثر من أن حجراً سقط من القمّة وانحدر على السفح وهوى عليها

فأصيبت بارتجاج في المخّ، وقد نُقلَت إلى المستشفى ليلة أمس وأعتقد أن حالتها سيئة، وقد جئتُ كي أقول لك إن رحلة اليوم قد أُلغيَت وإننا سنقضي الليلة هنا.

- أنا حزينة حقاً!

- أظن أنهم قرّروا إلغاء رحلة اليوم انتظاراً لتقرير الطبيب، وسنقضي الليلة في الفندق وسوف يترتب على ذلك إجراء بعض التعديل في برامج الرحلة، وقد ذهبَت السيدة ساندبورن إلى المستشفى في ساعة مبكّرة من صباح اليوم، ولكنها ستلحق بنا في الفندق في الساعة الحادية عشرة، ولذلك خطر لي أنك ربما تودّين العودة إلى الفندق لسماع آخر الأنباء.

فقالت الآنسة ماربل: بالطبع سأعود معك فوراً.

ثم التفتت لوداع كلوتيلد ولافينيا التي كانت قد انضمّت إليهم، ثم قالت: يجب أن أشكركما على ما لقيتُ هنا من حفاوة. الواقع أنني قضيتُ ليلتين رائعتين نعمتُ فيهما بالراحة التامّة.

فقالت لافينيا: إذا أردتِ قضاء ليلة أخرى فأنا واثقة...

ثم نظرت إلى كلوتيلد فلمحت الآنسة ماربل في عينَي كلوتيلد نظرة اعتراض، كما لاحظَت أنها هزّت رأسها هزة خفيفة لا تكاد تُرى فأدركت أنها لا توافق على اقتراح أختها التي استطردت قائلة بلسان متلعثم: صحيح أنه من الأفضل في مثل هذه الظروف أن تكوني مع الآخرين، ولكن...

فقاطعتها الآنسة ماربل قائلاً: أجل، هذا أفضل، وعلى الأقلّ كي أعرف كيف سيتصرّفون، وربما استطعتُ أن أكون

ذا فائدة بطريقة أو بأخرى، وأعتقد أنني سأجد لنفسي مكاناً في الفندق. شكراً مرة أخرى.

فقال أملين برايس: إن بالفندق غُرَفاً كثيرة، وأظن أن السيدة ساندبورن قد حجزت فيه أماكن لكل أعضاء الرحلة.

ثم حمل الشاب حقيبة الآنسة ماربل وقال وهو يوسع الخطى: الفندق قريب من هنا.

- أعلم ذلك. مسكينة الآنسة تمبل! أرجو ألاّ تكون إصابتها جسيمة.

- لقد نُقلَت إلى مستشفى كاريستاون على بُعد ثماني كيلومترات؛ فلا توجد هنا مستشفيات، ولا شك أنك تعرفين العبارة المألوفة التي يقولها الأطبّاء عادة عن حالة المصابين من أنها ليست أسوأ مما كان متوقّعاً، أمّا أنا شخصياً فأعتقد أن إصابة الآنسة تمبل جسيمة، وعلى كل حال ستأتينا السيدة ساندبورن بالخبر اليقين.

ووصلا إلى الفندق ليجدا أعضاء الرحلة يتناولون طعام الفطور، وسمعا السيدة بتلر تقول لزوجها: أليس من المزعج أن يقع هذا الحادث المحزن ونحن في أجمل مرحلة من مراحل الرحلة؟ مسكينة الآنسة تمبل! كنتُ أظن أنها أوفرنا نشاطاً وأثبتنا قَدَماً دائماً.

فقال زوجها: أنتِ تعلمين أن وقتنا محدود، وقد كنتُ أفكّر الآن في إنهاء رحلتنا عند هذا الحدّ لأن الأمور لن تستقيم بسرعة أو بسهولة، وإذا حدث ما لا نتوقّعه أو نرجوه فلا بدّ أن تشرَّح الجثة ويُجرى تحقيق.

قالت الآنسة كوك: أنت شديد التشاؤم يا سيد بتلر، أمّا أنا فواثقة من أن الإصابة ليست بهذه الخطورة.

وقال كاسبار بلكنته الأجنبية: بل هي خطيرة للغاية؛ فقد سمعتُ حديث الطبيب إلى السيدة ساندبورن، حيث قال إنه ارتجاج في المخّ وإنه لا بدّ من استدعاء طبيب متخصّص ليرى ما إذا كان يمكن إجراء جراحة أم لا.

فقالت الآنسة لوملي العجوز لصديقتها: ربما كان الأفضل أن نعود إلى بيوتنا يا ملدريد.

ثم التفتَت إلى السيدة بتلر وقالت: لقد اتفقتُ مع الجيران على ترتيب خاص لقططي، وأخشى إذا تأخّرتُ يوماً أو يومين أن يحدث ما لا تُحمَد عُقباه.

وقالت جوانا لعمّتها: هل ترَين مانعاً من أن أخرج مع أملين للنزهة في القرية؟ فذلك أفضل من الجلوس هنا والإصغاء إلى شتى الملاحظات المحزنة.

فقالت الآنسة كوك: أنا أؤيّد هذا الرأي.

وقالت الآنسة بارو قبل أن تتمكّن السيدة بورتر من الإجابة: اذهبي يا بنيّة، اذهبي.

قالت ذلك ونظرت إلى الآنسة كوك، فنظرت الآنسة كوك إليها وتنهّدت. وانتهى طعام الفطور وبدأت دلائل القلق تبدو على وجه أعضاء الرحلة. لقد أبدى كل منهم رأيه في الكارثة وعبّر عن دهشته أو حزنه ولم يبقَ لهم إلا أن يجلسوا في وجوم منتظرين الأخبار، وأخيراً نهضَت الآنسة كوك وقالت إنها

ستذهب إلى القرية لتتسوّق، فحذت الآنسة بارو حذوَها، ثم تبعهما الكولونيل ووكر وزوجته وقد قالا إنهما سيخرجان للنزهة في الحقول، وقال بتلر وزوجته إنهما سيحاولان البحث في حوانيت القرية عن تُحَف يقتنيانها، وقد انطلق أملين برايس للحاق بجوانا، والتفت الأستاذ وانستيد إلى الآنسة ماربل وقال: أظن أن الجلوس في شرفة الفندق المطلّة على الطريق أفضل من البقاء هنا. ألا ترين ذلك أنتِ أيضاً؟

فنهضت الآنسة ماربل، ولم تكن قد تبادلت معه كلمة واحدة خلال الرحلة، ولكنها لاحظَت أنه يحمل كتاباً في يده دائماً ولا يكفّ عن القراءة حتى في الحافلة. وقال لها: أنا أفضّل الانتظار في مكان هادئ حتى تعود السيدة ساندبورن؛ فمن الضروري أن نعرف حقيقة الموقف.

فقالت الآنسة ماربل: أنا أتفق معك في ذلك.

ثم خرجا إلى الشرفة، وكانت خالية من النزلاء وبها عدد من المقاعد المصنوعة من القشّ، فقدّم إليها وانستيد مقعداً، فانتهزت الفرصة ونظرت إليه ملياً، إلى حاجبَيه الكثيفين ووجهه المجعّد وشعره الغزير الذي وخَطه الشيب، فقال لها: هل أخطئ إذا قلتُ إنك الآنسة جين ماربل؟

- لا، أنا بالفعل جين ماربل!

وكان صوتها ينمّ عن الدهشة وإن لم يكن هناك ما يبعث عليها؛ فقد قضى أعضاء الرحلة معاً وقتاً طويلاً يكفي لأن يعرف كل منهم الآخر، ثم قال وانستيد: هذا ما توقّعتُه مما علمتُه عن أوصافك.

- أوصافي؟!

وكان صوتها مفعماً بالدهشة، فقال وانستيد بصوت خافت ولكنه مسموع: نعم، فقد وصفَك لي السيد رافيل.

- السيد رافيل؟!

- أيُدهشك هذا؟

- إلى حدّ ما.

- أنا لم أتصوّر لحظة واحدة أن ذلك سيدهشك.

- الحقيقة أنني لم أكن أتوقّع...

ولم تكمل عبارتها، ولم يتكلّم وانستيد وإنما راح يتأمّلها ويحدّق فيها كما يفعل الطبيب، حتى توقّعت أن يسألها: "ما الأعراض التي تشعرين بها يا سيدتي العزيزة؟" فقالت له: متى وصفَني لك؟ لا بدّ أنه فعل ذلك...

فقاطعها: أتقولين إنه فعل ذلك قبل موته ببضعة أسابيع؟ نعم، هذا صحيح. وقد خبرّني إنك ستشتركين في هذه الرحلة.

- وهل كان يعلم أنك أنت أيضاً ستشترك فيها؟

- نعم.

- الواقع أنني دهشت أشدّ الدهشة حين علمتُ أنه هيّأ لي هذه الفرصة الفريدة التي ما كانت لتتاح لي لولا كرمه.

فأطرق وانستيد برأسه ولم يُجِب، واستطردت الآنسة ماربل قائلة: ومن المؤسف له أن يقع هذا الحادث فيعكر صفونا.

- أجل، فهذا حادث محزن لم يكن متوقَّعاً، أو لعله كان متوقّعاً، فما رأيك؟

فسألته بدهشة: ماذا تعني بذلك يا أستاذ وانستيد؟

- لقد حدّثني عنك السيد رافيل بإسهاب، وقد اقترح أن أشترك معك في هذه الرحلة كي يتمّ التعارف بيننا على نحو ما هو مألوف في مثل هذه الرحلات حين ينقسم أعضاؤها إلى جماعات، كل جماعة تضمّ عدداً من ذوَي الميول والاهتمامات المتشابهة، كذلك اقترح عليّ السيد رافيل أن ألاحظك وأراقبك.

فقالت مستنكرة: تلاحظني وتراقبني؟! لماذا؟

- لحمايتك فيما أظن؛ فهو لم يكن يريد أن يحدث لك حادث.

- ماذا كان يمكن أن يحدث لي؟

- ما حدث لإليزابيث تمبل مثلاً.

وفي تلك اللحظة مرّت جوانا كروفورد وبيدها سلّة فنظرت إليهما بفضول ثم مضت في طريقها إلى داخل الفندق، فقال وانستيد وهو يشيّعها ببصره: فتاة ظريفة. إن عمّتها المستبدّة تستخدمها كما تُستخدَم الدوابّ، ولكنني واثق من أنها ستشقّ عليها عصا الطاعة قريباً، وقريباً جداً.

ولكن الحديث عن جوانا كروفورد لم يكن يهمّ الآنسة ماربل أو يعنيها فقالت بحدّة: ماذا كنتَ تعني بما قلت في منذ لحظة؟

- هذه مسألة يجب أن نناقشها بمناسبة ما حدث.

- أتعني ذلك الحادث الذي وقع للآنسة تمبل؟

- نعم، هذا إذا كان حادثاً.

- هل تظن أنه لم يكن قضاء وقدراً؟

- هذا محتمل.

- ربما؛ فأنا لا أعرف عنه شيئاً.

- ذلك لأنك كنت غائبة عن المسرح، أو دعينا نقول لأنك كنت وقت الحادث تؤدّين واجبك في مكان آخر.

فصمتت الآنسة ماربل ونظرَت إليه من طرف عينها مرة أو مرتين ثم قالت: لستُ أفهم ماذا تعني.

- بل تفهمين جيّداً ولكنك تحذَرينني، لك كل الحق في ذلك لأنك لا تعرفين شيئاً عني، فكل ما تعرفينه هو اسمي كما جاء في قائمة أعضاء الرحلة، ولكن مهما يكن من أمر فمهمّتي كانت مراقبتك وملاحظة ما تفعلين وأن أكون على مقربة منك إذا حاق بك خطر من أيّ نوع. ولكن الموقف تغيّر بعض الشيء الآن، وأصبح من واجبك أن تقرّري هل أنا خصم أم حليف.

- ربما كنتَ على حقّ. لقد عرضتَ الموقف بوضوح، ولكنني لا أعرف عنك ما يساعدني على الحكم عليك، فهل كنت صديقاً للسيد رافيل؟

- لا، أنا لم أكن صديقاً للسيد رافيل. لقد قابلتُه مرة أو مرتين في اجتماع مجلس إدارة أحد المستشفيات، ولكنني كنتُ

أعرف الكثير عنه وأعتقد أنه كان يعرف الكثير عني. أنا أخشى أن تتهمّيني بالغرور يا آنسة ماربل إذا قلتُ إنني شخص بارز في المهنة التي أزاولها.

- هل تزاول الطبّ؟

- أرى أنك قوية الملاحظة يا آنسة ماربل. نعم، أنا أزاول الطبّ، وتخصّصي هو الطبّ النفسي، وعملي قاصر على الخبرة الطبّية في القضايا الجنائية، وقد عكفتُ على دراسة عقلية المجرمين على اختلاف أنواعهم وقضيتُ في ذلك سنوات عديدة، كما أنه لي في هذا الموضوع مؤلّفات أثارت كثيراً من الجدل في الدوائر الطبّية.

فقالت الآنسة ماربل: ما دام الأمر كذلك فلعلّكَ تستطيع أن توضّح لي بعض أمور لم يرَ السيد رافيل من المناسب أن يوضّحها لي. لقد طلب مني القيام بمهمّة معيّنة ولكنه لم يمدّني بمعلومات أسير على ضوئها!

- ولكنك قَبِلت المهمّة، أليس كذلك؟

- سأكون صريحة معك، لقد قَبِلتُها بسبب الحافز المالي.

- وهل يهمّك الحصول على هذا المال؟

فصمتت الآنسة ماربل لحظة ثم قالت: قد لا تصدّقني إذا قلتُ لك إنه لا يهمّني.

- إذن فقد أثارت المهمّة فضولك.

- نعم، لقد أثارت فضولي. وقد كانت معرفتي بالسيد رافيل سطحية، فقد قابلته لأوّل مرة في إحدى جُزُر الهند

الغربية، ولا بدّ أنكَ تعرف شيئاً عن هذا الموضوع.

- أعرف أنكما تعاونتما معاً هناك.

- هل قال لك ذلك؟

- نعم، وقال إن لك حاسّة سادسة فيما يختصّ بالجرائم.

- ألم يُثِر ذلك دهشتك؟

- أنا قلّما أدهش، ثم إن السيد رافيل كان رجلاً حصيفاً يحسن الحكم على الناس.

وصمت لحظة ثم قال: المهمّ الآن هو أننا اجتمعنا هنا مصادفة أو بتدبير سابق كي نبحث أموراً معيّنة، والآن نحن وحدنا ولا يرانا أحد أو يسمعنا، فلماذا لا نتحدّث بصراحة؟

- أنا أرحّب بذلك، ولكنني أؤكّد لك أنني أجهل تماماً ما يُراد مني، ولا أدري لماذا تعمّد السيد رافيل أن يتركني في الظلام هكذا!

- لعله أدرك أن تعالجي بعض الحقائق والأحداث بعقل متفتح وبلا تحيّز.

- إذن فليس في نيّتكَ أنت أيضاً أن تمدّني بمزيد من المعلومات.

فابتسم وانستيد وقال: بل سأذكر لك حقائق معيّنة توضّح لك بعض الأمور.

- إذن تكلّم بالله عليك.

* * *

الفصل الثاني عشر

استشارة

قال وانستيد: سأحدّثك بإيجاز عن الظروف التي أقحمتني في هذه القضية. أنا أعمل بين وقت وآخر مستشاراً لوزارة الداخلية، كما أنني على اتصال بالمؤسسات التي يودَع بها المتهمون في جرائم معيّنة لمدة معيّنة أو إلى أجل غير مسمّى وفقاً لأعمارهم وأمراضهم العقلية والنفسية وتنفيذاً للأحكام التي أصدرتها محاكم الأحداث، وقد جرت العادة أن أُستشار في أمر المجرمين عقب اعتقالهم وانتهاء التحقيق معهم لأقرّر مدى مسؤوليتهم عن الجرائم التي ارتكبوها ونوع المعاملة التي يجب أن يعامَلوا بها في أثناء اعتقالهم والعقوبة المشدّدة أو المخفّفة التي ينبغي أن تُطبَّق عليهم، وأحياناً يحدث أن يتصل بي مدير إحدى تلك المؤسسات لاستطلاع رأيي في حالة بعينها.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً: وذات يوم تلقّيتُ رسالة من مدير إحدى المؤسسات عن طريق وزارة الداخلية، وعندما ذهبتُ لمقابلته اكتشفت أنه من أصدقائي القدامى الذين انقطعَت صلتي بهم منذ وقت طويل، وقد عرض الرجل عليّ المشكلة

التي تُقلقه، وهي مشكلة خاصة بمذنب شابّ أُرسل إلى تلك المؤسسة قبل أن يُسنَد إليه إدارتها ببضع سنوات. قال إن له خبرة بالمذنبين المرضى وإنه فحص ملفّ ذلك المذنب الشاب وسوابقه المتعدّدة، فوجد أنه إنسان منحرف منذ نعومة أظافره، إنسان مستهتر لا يقيم وزناً للمسؤولية، بل مجرم بطبعه وغرائزه، فقد ارتكب جرائم السرقة والتزوير والاحتيال وهتك الأعراض، وخلاصة القول أنه كان من أولئك الأبناء الذين يجلبون العار على ذويهم.

فغمغمت الآنسة ماربل قائلة: فهمت.

- فهمتِ ماذا؟

- فهمتُ أنك تتحدّث عن ابن السيد رافيل.

- أصبتِ، أنا أتحدّث عن ابن السيد رافيل حقاً، فماذا تعرفين عنه؟

- لا شيء، ولكنني سمعتُ (وكان ذلك بالأمس فقط) أن للسيد رافيل ابناً منحرفاً ذا ماضٍ حافل بالجرائم. هل كان هو الابن الوحيد للسيد رافيل؟

- نعم، كان ابنه الوحيد، ولكن كانت له ابنتان أخريان ماتت إحداهما وهي في الرابعة عشرة من عمرها، وتزوّجت الأخرى وهي سعيدة في حياتها الزوجية ولكنها لم تُرزق بأولاد.

- مسكين ذلك الرجل!

- ربما. وقد ماتت زوجته وهي في ريعان الشباب، وأعتقد

أن حزنه عليها كان عظيماً رغم حرصه على إخفائه، ولا أعلم إلى أيّ مدى كان يهتمّ بأولاده ولكنني واثق من أنه كان يُعنى بهم أشدّ العناية وأنه بذل قُصارى جهده من أجل ابنه، أمّا ماذا كان شعوره نحو هذا الابن فذلك ما لا أعلمه؛ فقد كان من الصعب قراءة أو معرفة مشاعره، وأعتقد أن كل حياته واهتماماته كانت تتركّز في عمله كرجل مالي، شأنه في ذلك شأن جميع الناجحين من رجال المال والأعمال، ولم يكن شغوفاً بالمال ذاته بقدر شغفه بالنجاح. وأكبر الظن أنه فعل كل ما يستطيع من أجل ابنه وأنه استخدم أعظم المحامين لإنقاذه من تبعات جرائمه كلّما كان ذلك مستطاعاً، إلى أن حلّت الكارثة الكبرى حين اتُّهم الشاب بالاعتداء على إحدى الفتيات وهتك عِرضها فحُكم عليه بالسجن، وقد راعت المحكمة صغرَ سنّه فلم تأخذه بالشدّة. وبعد أن قضى مدة العقوبة جاءت الكارثة الثانية والأخيرة.

- قَتْل إحدى الفتيات، أليس كذلك؟

- هذا ما قيل لي.

- لقد غرّر بها وحملها على الهروب معه، ثم وُجدت جثّتها بعد بضعة شهور، وقد أثبت الفحص الطبي أنها خُنقت ثم هُشّم رأسها بحجر أو بأداة ثقيلة لإخفاء معالم وجهها كي لا تُعرَف شخصيتها.

- يا له من وحش!

- أهذا رأيك فيه؟

- الجرائم من هذا النوع تثير غضبي واشمئزازي، وإذا كنتَ تتوقّع مني أن أعبّر عن أسفي وعطفي على ذلك المجرم أو أن

ألتمس له عذراً من طفولته أو تربيته أو بيئته فأنت مخطئ؛ فأنا لا أحبّ الشرّ ولا الأشرار.

فقال وانستيد: يسرّني أن أعلم ذلك، أنت لا يمكن أن تصدّقي مدى عنائي في مهنتي من أولئك الذين يبكون ويولولون ويلقون اللوم كلّه على البيئة والوراثة والطفولة التعيسة، ولو علم هؤلاء في أية بيئة يعيش بعض الناس وبأية قسوة يعامَلون وأية صعوبات يلقون في حياتهم ومع ذلك يخرجون من هذه المحن كراماً شرفاء لما بكوا وولولوا وألقوا اللوم على غير أنفسهم. أنا أشفق على المرضى والمتخلّفين عقلياً والذين لا يستطيعون السيطرة على أنفسهم والتحكّم في تصرّفاتهم، ولكنني لا ألوم البيئة أو الظروف. هل تفهمين ما أعني؟

- نعم.

- لنعُد إلى قصّتنا. لقد أوضح لي مدير تلك المؤسسة سببَ حرصه على معرفة رأيي فيما يهمّه ويشغل باله، فقال إن اتصالاته بذلك المذنب الشاب وتجاربه معه ودراسته له قد أقنعته بأنه لا يمكن أن يكون قاتلاً؛ فهو لا يشبه أيّ قاتل مما رآهم قبلاً. أجل، عقليّته عقليّة المجرم ولا يمكن إصلاحه أو تقويمه مهما عولج ولكنه ليس قاتلاً، ثم قال إنه لا يستطيع أن يصدِّق أن ذلك الشاب قد خنق فتاة ثم ألقى جثتها في حفرة وهشّم وجهها بحجر، كما أنه عكف على دراسة ملفّ القضية وما تتضمنه من حقائق وأدلّة تتلخص في أن الشاب كان يعرف الفتاة وقد شوهد معها مراراً في مناسبات مختلفة قبل الجريمة، وأن سيارته شوهدت بالقرب من مكان الجريمة. إذن الأدلّة قوية وقاطعة، ولكنّ رأيه الشخصي الذي تولّد من تجاربه ومن دراسته للمتهم

الشاب تتعارض مع الأدلّة، ولذلك فكّر بدافع تعصّبه الغريزي للحقّ والعدل في استطلاع رأي خبير في الطبّ النفسي، ولما كنتُ متخصّصاً في هذا الفرع من الطبّ أرسل في طلبي كي أقابل المتهم وأتحدّث إليه وأقيّمه وأبدي رأي الطبّ النفسي فيه.

فقالت الآنسة ماربل: ها هو ذا رجل نزيه محبّ للعدل، رجل جدير بالاحترام ويحب التعاون معه.

- لقد تعاونتُ معه، فقابلت المتهم وتحدثت إليه وعكفت على دراسته من جميع النواحي، وناقشته في النقاط القانونية التي يمكن إثارتها، بل وقلتُ له إنه من المحتمل أن نستعين بأحد كبار المحامين لإبراز النقاط التي في مصلحته. لقد تحدثت إليه كصديق وتحدثت إليه كعدوّ كي أرى ردود الفعل في الحالتين، ثم أخضعته لعديد من الاختبارات العلمية التي يلجأ إليها الطبّ النفسي الحديث.

- وماذا كان رأيك في النهاية؟

- كان رأيي أن مدير المدرسة على حقّ وأن مايكل رافيل لا يمكن أن يكون قاتلاً.

- وماذا عن القضية الأولى التي أُدين فيها بالاعتداء على إحدى الفتيات وسُجِن؟

- كانت قرينة ضدّه طبعاً، ولكنها لم تُؤخَذ في الاعتبار، وقد بحثتُ وقائع تلك القضية مؤخّراً فوجدتُ أنها ليست قضية هتك عرض بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن، فالفتيات في هذه الأيام أكثر استجابة للغواية وأقل مقاومة للاعتداء، ولكن أمهاتهن يُصمِّمن على وصف تلك المغامرة بأنها اعتداء وهتك

عرض. وقد ثبت أن الفتاة التي نحن بصددها كان لها أكثر من صديق وأن العلاقة بينها وبينهم تجاوزَت حدود الصداقة، ولهذا أعتقد أن القضية الأولى لم تُؤخذ في عين الاعتبار عند نظر القضية الثانية.

- وماذا فعلت بعد ذلك؟

- اتصلتُ بالسيد رافيل وقلتُ له إنني أريد مقابلته لأمر خاصّ بابنه، وتقابلنا فأوضحتُ له وجهة نظري ووجهة نظر المؤسسة التي يقضي ابنه العقوبة فيها، وقلت له إنه لا يوجد لدينا دليل يبرّر المطالبة بإعادة نظر القضية ولكننا على يقين من أن الحكم الذي صدر لا يمتُّ للعدالة بصِلة؛ فهو خطأ من أخطاء القضاء، ثم اقترحتُ عليه القيام بتحقيق ربما يتكلّف كثيراً من النفقات، ولكن يُحتمل أن يكشف عن حقائق تُقنع المسؤولين بإعادة النظر في القضية، وكنت قد لاحظتُ في أثناء الحديث أن السيد رافيل مريض جداً، ولم يلبث هو نفسه أن اعترف بذلك قائلاً إن الأطباء أنذروه منذ عامين بأنه سيموت بعد عام واحد، ثم وجدوا فيما بعد أنه قد يعيش أكثر مما قدّروا له لصلابته وقوّة احتماله وإصراره على الحياة، ثم سألتُه عن شعوره نحو ابنه.

- وماذا كان شعوره؟

- كان صريحاً معي رغم...

- رغم جفائه، أليس كذلك؟

- هذا هو الوصف الصحيح يا آنسة ماربل. لقد كان رجلاً جافّاً بقدر ما كان أميناً، فقد قال: أنا أعرف ابني على حقيقته منذ سنوات عديدة، ولم أحاول تقويمه لأنه ليس في مقدور أحد أن

يقوّمه؛ فهو معوجّ ومطبوع على الشرّ وإذا خرج من مشكلة وقع في أخرى، لذا نفضتُ يدي منه فيما عدا أنني كنتُ أمدّه بالمال والمعونة كلّما قُبض عليه. لقد فعلتُ من أجله كل ما أستطيع، ولو كان لي ولد مريض أو مصاب بالشلل أو الصرع لفعلتُ من أجله كل ما أستطيع لا أكثر ولا أقلّ. والآن ماذا أستطيع أن أفعل لأجله؟

فقلتُ له: هذا يتوقّف على ما يريد هو أن يفعله.

فأجاب قائلاً: الأمر واضح، فأنا مريض لا حول لي ولا قوة، ولكني أعرف ما ينبغي عمله، ينبغي أن يُردّ له اعتباره وأن يُطلق سراحه كي يعيش على نحو ما يريد، فإذا أراد المضيّ في عبثه وشروره فذلك شأنه، سأترك له مالاً يعيش منه وسأفعل كل ما أستطيع من أجله؛ فأنا لا أريده أن يُسجَن ويتألّم ويُعزَل عن الحياة بسبب غلطة طبيعية تبعث على الأسف، فإذا كان هناك رجل آخر قَتَل الفتاة فأنا أريد أن يُعرَف ذلك ويذاع على الملأ. أنا أريد العدالة لمايكل، ولكنني مريض وما بقي لي في الحياة يُحسَب بالأسابيع لا بالشهور أو السنين.

فقلتُ له: أنا أعرف محامين يستطيعون...

ولكنه قاطعني بقوله: لا جدوى من المحامين، في استطاعتك أن تستخدمهم ولكن لا جدوى منهم. سأحاول تدبير الأمر بنفسي في حدود الفترة القصيرة التي سأعيشها.

ثم عرض عليّ مبلغاً كبيراً لأقوم بالبحث عن الحقيقة دون أن أدّخر في سبيل ذلك جهداً أو مالاً وقال: أنا شخصياً لا أستطيع عمل شيء لأن الموت قد يدهمني في أية لحظة،

ولكنك ستكون أكبر عون لي وسأختار لك الشخص الذي يساعدك في مهمّتك.

قال ذلك وكتب اسمك، الآنسة ماربل، ثم استطرد قائلاً: لن أذكر لك عنوانها لأنني أريدك أن تقابلها في المكان والظرف الذي سأحددهما.

ثم حدّثني عن رحلة جمعية القصور التاريخية والحدائق المشهورة، وقال إنه سيحجز لي مكاناً فيها، ثم قال: وستكون الآنسة ماربل في تلك الرحلة أيضاً، وهكذا تلتقيان وكأن الأمر مجرّد مصادفة.

وصمت وانستيد لحظة ثم قال: كان عليّ أن أختار الوقت المناسب لأعرّفك بنفسي إذا رأيتُ ذلك ضرورياً، أو ألاّ أعرفك بنفسي إذا رأيت ذلك أفضل. أنا أتوقّع أن تسأليني عما إذا كان لديّ أو لدى صديقي مدير المؤسسة من الأسباب ما يحملنا على الارتياب في أن شخصاً بعينه قد ارتكب الجريمة التي اتُّهم فيها مايكل، ولذلك أبادر فأقول لك نحن لا نرتاب في أحد، وقد بحث صديقي مدير المؤسسة هذا الموضوع مع ضابط الشرطة الذي أشرف على تحقيق الجريمة، وهو ضابط كُفء له خبرة واسعة في هذه الأمور.

- هل ارتاب الضابط في أحد؟ ألم يذكر أيّ اسم؟ ألم يكن للفتاة صديق سابق انتزعته من قلبها عندما اتصلت بمايكل؟

- مطلقاً.

وصمت وانستيد مرة أخرى ثم استأنف حديثه قائلاً: لقد طلبتُ إلى السيد رافيل أن يحدّثني عنك فكان كل ما قاله إنك

متقدّمة في السنّ ولك خبرة بالناس، ثم ذكر عنك شيئاً آخر.

- ما هو؟ هل قال لك إنني شديدة الفضول؟ لعل هذه هي الصفة الطيّبة الوحيدة التي أعرفها في نفسي، وفيما عدا ذلك فأنا ضعيفة السمع والبصر وأبدو كأيّ عجوز ساذجة، فهل قال شيئاً بهذا المعنى؟

- لا، ولكنه قال إن لك حاسّة سادسة بالنسبة للجريمة.

- حقاً؟

- هل هذا صحيح؟

- ربما، والواقع أنني كثيراً ما أحسستُ بالشرّ ومكامنه في الدوائر القريبة مني، وهذا إحساس غريزي، ومثلي في ذلك مثل أولئك الذين يولَدون بحاسّة شمّ قوية، فهم يشمّون رائحة الغاز المتسرّب في حين لا يشمّه الآخرون مثلاً، كما يستطيعون تمييز أنواع العطور بسهولة. وقد كانت لي عمّة طالما سمعتُها تقول إنها تشمّ رائحة الكذب. والكذب لا رائحة له ولكنها الحساسية الغريزية. في هذه القضية بعد وفاة السيد رافيل دعاني محاميه لمقابلته وأطلعني على العرض الذي اقترحه السيد رافيل، ثم وصلتني رسالة من هذا الأخير لم توضّح لي شيئاً، وبعد فترة من الوقت جاءتني رسالة من الشركة التي تشرف على هذه الرحلات تقول فيها إن السيد رافيل حجز لي قبل موته مكاناً في هذه الرحلة كمفاجأة لي، فدهشتُ ولكنني اعتبرتُ الرحلة خطوة أولى في الطريق إلى الهدف الذي ينشده وأنني بعد الرحلة أو خلالها سأتلقى مزيداً من التعليمات أو التوجيهات. وأمس الأوّل استقبلتُ على أثر وصولي ثلاث شقيقات دعونني لقضاء يومين في

بيتهنّ القديم وقُلن إنهن تلقَّين رسالة من السيد رافيل كتبها قبل موته قال فيها إن صديقة قديمة له ستكون بين أعضاء الرحلة، وإنه سيكون شاكراً إذا هُنّ استضفن تلك الصديقة يومين أو ثلاثة لأن صحّتها لن تسمح لها بارتقاء التلّ وشهود النصُب التذكاري مع زملائها في الرحلة التي يتضمنها برنامج أمس.

- وهل اعتبرتِ ذلك أيضاً كتوجيه لك إلى مهمّتك؟

- طبعاً، لم يكن هناك تفسير آخر؛ فالسيد رافيل ليس الرجل الذي يكلّف نفسه كل هذا العناء لمجرّد إشفاقه على سيدة عجوز من متاعب صعود التلّ، بل كان يريدني أن أذهب إلى ذلك البيت.

- وهل ذهبتِ؟ وماذا وجدت؟

- نعم، ولم أجد شيئاً سوى ثلاث شقيقات.

- ثلاث شقيقات غريبات الأطوار.

- لا، ثلاث شقيقات عاديات، ولكنهن على جانب عظيم من اللطف ودماثة الخُلق وإن اختلفت كل منهن عن الأخرى، وقد خُيّل إليّ أنهن لا يعرفن السيد رافيل جيداً، وقد كانت جميع محادثاتي معهنّ غير مثمرة.

- إذن لم يتكشّف لك شيء خلال إقامتك؟

- بل تكشّفت لي الحقائق الأساسية في القضية التي حدّثتِني أنتِ عنها الآن، كما ذكرَتها لي خادمة عجوز ترجع صلتها بالبيت إلى عهد الكولونيل العجوز عمّ الشقيقات الثلاث. لم تكن تعرف السيد رافيل ولكنها تحدّثت عن الجريمة بطلاقة، فقالت إن

المأساة بدأت بزيارة ابن السيد رافيل لذلك البيت، وقد أحبّته الفتاة وإنه خنقها.

- ألم تذكر أن للشقيقات صلة بالمأساة؟

- لم تذكر، فكلّ ما قالته أن الفتاة كانت ربيبتهن وأنهن أحببنها حبّاً كبيراً.

- لعلهن يعرفن شيئاً عن رجل آخر كان يحبّ الفتاة.

- أجل، وذلك الرجل هو ضالّتنا التي يجب أن نبحث عنها، ولا بدّ أن يكون رجلاً فظاً لا يتورّع عن تهشيم رأس فتاة بعد قتْلها، رجلاً من أولئك الذين تخرجهم الغيرة عن صوابهم.

- هل لفت نظرك شيء في ذلك البيت؟

- لا شيء يستحقّ الذكر، فقد كانت صُغرى الشقيقات لا تكفّ عن الحديث عن الحديقة كما لو كانت من هواة فِلاحة البساتين، وهذا يذكّرني بشيء آخر.

- ما هو؟

- هل رأيتَ بين أعضاء الرحلة امرأتين في الحلقة الثالثة من العمر إحداهما تُدعى الآنسة بارو والثانية الآنسة كوك؟

- نعم، أعتقد أنهما آنستان تسافران معاً.

- لقد اكتشفتُ أمراً عجيباً عن الآنسة كوك، أو مَن تدّعي هذا الاسم.

- لماذا؟ هل لها اسم آخر؟

- أظن ذلك؛ فهي نفس المرأة التي مرّت ببيتي في القرية حيث أقيم وعبّرَت عن إعجابها بحديقتي، ثم تحدّثت عن الحدائق فقالت إنها تقيم مع سيّدة تقطن في بيت جديد هناك. وأنا أعتقد أن كل ما قالته كان كذباً لأنها لا تعرف شيئاً عن الحدائق أيضاً.

- وماذا كان غرضها إذن من حديثها معك؟

- لم أكن أعلم في ذلك الوقت، وقد قالت لي يومئذٍ إن اسمها بارتليت، وذكرَت للسيدة التي تقيم معها اسماً لا يحضرني الآن ولكنه يبدأ بحرف الهاء فيما أظن، وكان لشعرها لون آخر كما كانت ثيابها من طراز مختلف. وعندما قابلتُها في هذه الرحلة لأوّل مرة لم أعرفها، ولكنني شعرتُ بأن وجهها مألوف، وفجأة تذكّرتُها حين اكتشفتُ أن شعرها مصبوغ، وقد اعترفَت لي بأنها ذهبَت إلى القرية وزعمَت أنها أيضاً لم تعرفني في الرحلة، وكل ذلك كان كذباً.

- وما رأيك أنت؟

- من المؤكّد أن تلك التي تدعو نفسها الآنسة كوك قد ذهبَت إلى القرية خصّيصاً لتراني حتى تستطيع التعرّف عليّ متى تقابلنا مرة أخرى.

ثم ساد الصمت بينهما قليلاً إلى أن قال وانستيد: ما حدث لإليزابيث تمبل يثير قلقي. هل تحدّثتِ إليها خلال الرحلة؟

- نعم، وأودّ أن أتحدّث إليها مرة أخرى متى تحسّنَت حالتها؛ فهي قد تخبرنا بالمزيد عن الفتاة التي قُتلت، فقد حدّثتني عن تلك الفتاة التي كانت طالبة في مدرستها فقالت

إنها كانت على وشك الزواج بابن السيد رافيل ولكنها لم تتزوّجه وماتت، وعندما سألتُها كيف ماتت ولماذا ماتت أجابت بكلمة واحدة هي: «الحب»، وظننتها تعني أن الفتاة انتحرت، ولكن الحادث كان جريمة قتل، جريمة قتل بسبب الغيرة، هذا هو التفسير الوحيد؛ فقد كان هناك رجل آخر يحب الفتاة، ومهمّتنا هي البحث عن ذلك الرجل، وربما استطاعت إليزابيث تمبل أن تدلّنا عليه.

- أليست هناك احتمالات أخرى؟

- ما نحتاج إليه أكثر من أيّ شيء آخر في الوقت الحاضر هو المعلومات، حتى ولو كانت معلومات غير واضحة، فقد تكون إحدى الشقيقات الثلاث تعرف أو تتذكّر شيئاً قالته الفتاة أو قاله مايكل. لقد كانت كلوتيلد تقوم مع الفتاة برحلات إلى الخارج، فلعلّها تذكُر شيئاً حدث أو كلمة قالتها الفتاة في إحدى تلك الرحلات عن رجل قابلَته أو اتصلَت به، أمّا الأخت الثانية لافينيا فقد تزوّجَت وعاشت مع زوجها في الهند، وكانت صلتها بالفتاة أضعف من صلة أختَيها، ولكن ذلك لا يمنع من أنها ربما تعرف بعض الحقائق، وأمّا الأخت الصغرى فعقلها مُشتَّت إلى حدّ ما، ولكن ربما كانت لديها معلومات عن عُشّاق للفتاة، أو ربما اتفق لها أن رأت الفتاة مع رجل مجهول. آه! ها هي الأخت الصغرى، أنثيا برادبوري، تحمل حزمة كبيرة، ولعلها في طريقها إلى مكتب البريد في ركن الشارع.

- يُخيّل إليّ أنها قليلة الاهتمام بمظهرها. انظري كيف يتطاير شعرها الجميل في الهواء!

* * *

الفصل الثالث عشر

مربّعات سوداء وحمراء

عادت السيدة ساندبورن عندما كان أعضاء الرحلة يتناولون طعام الغداء، ولم تكن أنباؤها مطَمئنة، فقد قالت إن إليزابيث تمبل لا تزال في غيبوبة ولا يمكن نقلها قبل بضعة أيام. ثم تناولت المسائل العملية فقالت إنها أعدّت جدولاً لمواعيد القطارات لأولئك الذين يرغبون في العودة إلى لندن، كما وضعت برنامجاً معدّلاً للرحلة التي تُستأنَف بعد يوم أو يومين.

وانتحى وانستيد بالآنسة ماربل جانباً وقال لها: إذا لم يكن في نيّتك الاستراحة بعد ظُهر اليوم فسأمرّ بك بعد ساعة لاصطحابك إلى إحدى الكنائس الأثرية.

وفي الوقت المحدد جاء وانستيد في سيارة استأجرها، فجلست الآنسة ماربل بجواره في المقعد الأمامي ثم قال لها: لقد خطر لي أنه ربما يهمّك زيارة تلك الكنيسة بالذات، وليس ثمة ما يمنعنا عن الاستمتاع بالمناظر الريفية ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

فقالت الآنسة ماربل: هذا كرم منك، ولكن يُخيّل إليّ أن

كل متعة في هذه الظروف تبدو شيئاً قاسياً، ولا شك أنك تفهم ما أعني.

- يا سيدتي العزيزة، الآنسة تمبل لم تكن صديقتك في يوم ما، كما أن هذه الحوادث المحزنة تقع كل يوم.

وعندما ابتعدت السيارة عن القرية التفت وانستيد إلى الآنسة ماربل وقال: نحن لن نذهب إلى أية كنيسة.

- هذا ما توقّعتُه، ولكن إلى أين سنذهب إذن؟

- إلى مستشفى في كاريستاون.

- أتقصد المستشفى الذي نُقلت إليه الآنسة تمبل؟

- نعم، لقد حُملت إلى السيدة ساندبورن رسالة من إدارة المستشفى فاتصلَت بالمستشفى هاتفياً منذ قليل.

- هل الآنسة تمبل أحسن حالاً؟

- لا، شفاؤها أمر مشكوك فيه، ولكن ليس هناك ما يمكن عمله؛ فهي في غيبوبة لا تفيق منها إلا لحظات.

- ولماذا تذهب بي إليها؟ أنا لست صديقتها، وقد قابلتها لأوّل مرة في هذه الرحلة.

- أعلم ذلك، ولكنني سأذهب بك إليها لأنها ذكرَت اسمك في إحدى لحظات يقظتها وطلبَت مقابلتك.

- لماذا وهي تعلم أنني لن أستطيع أن أفيدها بشيء؟

ثم هزّت رأسها أسفاً واستطردت قائلة: إنها سيدة عظيمة.

لقد كانت مديرة لمدرسة فالوفيلد، وكانت لها مكانة بارزة في الدوائر التربوية، وهي شخصية واسعة الثقافة حاصلة على الدكتوراه في الرياضيات، وكانت شديدة الاهتمام بالمسائل التربوية ولا تدّخر وسعاً في تشجيع تلميذاتها فيما يتفوّقن فيه من فروع العلم والمعرفة. من المؤسف أن تذهب ضحية حادث سخيف كهذا، هذا الحادث...

وصمتت لحظة ثم استطردت قائلة: لعلكَ تفضّل ألاّ نناقشه، أليس كذلك؟

- بل من الأفضل أن نناقشه. لقد سقط حجر من فوق التلّ، وهذا أمر مألوف حدث مراراً من قبل، ولكن بعضهم تحدّث إليّ في هذا الموضوع.

- في موضوع الحادث؟ مَن الذي تحدّث إليك؟

- الشابّان جوانا كروفور وأملين برايس.

- ماذا قالا لك؟

- قالت جوانا إنها رأت فوق التلّ شخصاً يزحزح الحجر بكل قوّته ليدحرجه على سفح التلّ، وهي واثقة من أنها رأت الحجر يهتزّ ثم ينفصل عن مكانه ويهوي على سفح التلّ في الوقت الذي كانت فيه الآنسة تمبل تسير في الممرّ المألوف المؤدّي إلى القمّة، فأصابها الحجر وواصل انحداره بكل قوّة. وتعتقد الفتاة أنه لو لم يتعمّد إنسان إصابة الآنسة تمبل بذلك الحجر لما نجح.

- وهل كان ذلك الشخص رجلاً أم امرأة؟

- من سوء الحظ أن الفتاة لم تستطع أن تقطع في هذا الأمر برأي، ولكنها قالت إنه كان يرتدي بنطالاً أزرق وقميصاً من الصوف منقوشاً بمربّعات حمراء وسوداء زاهية اللون، وقد اختفى عقِب ذلك مباشرة.

- وهل تعتقد الفتاة أو تعتقد أنتَ أن الحادث دُبِّر عمداً لقتل الآنسة تمبل؟

- تميل الفتاة إلى هذا الاعتقاد ويؤيّدها الشاب كذلك.

- أليست لديك فكرة عمّن يكون الفاعل؟

- إطلاقاً، فربما يكون أحدَ أعضاء الرحلة أو شخصاً مجهولاً علم بموعد وصول الرحلة فاختار هذا المكان للاعتداء على حياة أحد أعضائها، وربما يكون أحد هواة العنف حبّاً للعنف في ذاته، على أن السؤال الذي يجب أن نطرحه هو: مَن الذي يودّ قتل مديرة مدرسة متقاعدة؟ ربما تستطيع الآنسة تمبل نفسها الإجابة على هذا السؤال؛ فقد يُحتَمل أنها رأت الفاعل وعرفته أو تعرف شخصاً معيناً يحقد عليها لسبب ما، فمديرة المدرسة تتصل بتلميذاتها وبعائلاتهن وتعرف عن الفتيات ومغامرتهن أكثر مما يعرف ذووهن. وقد أصبحت المغامرات العاطفية شيئاً مألوفاً في حياة الطالبات في هذا الزمن، وهم يقولون إن البنات ينضجن في سنّ مبكرة، وهذا صحيح من وجهة النظر الفسيولوجية، ولكن النضج بمعناه الصحيح لا يحدث إلا في وقت متأخّر، فطفولة البنات تمتد وقتاً طويلاً فتظلّ البنت طفلة بشعرها الذي يتطاير حولها وبالثياب القصيرة التي ترمز لحبّ الطفولة؛ فهي لا تحبّ أن تكون مراهقة ولا أن تتحمّل مسؤوليات المراهقات،

ولكنها تحبّ أن يظن الناس أنها قد شبَّت عن الطوق شأنها شأن أيّ طفل وأن من حقها أن تمارس حرّيتها وأن تفعل ما يفعله الكبار. ومن هنا تحدث المآسي.

- هل تشير إلى مأساة بعينها؟

- لا، إنما أفكّر في كافّة الاحتمالات، ولكني لا أظن أن للآنسة تمبل عدوّاً قاسي القلب بحيث يترقّب مثل تلك الفرصة لقتلها، ولعل أقرب الاحتمالات إلى الصواب هو...

وصمت لحظة ثم قال: حاولي أن تعرفي ما يدور بخلدي.

- أظن أنني أعرف ما يدور بخلدك، فأنت تظن أن الآنسة تمبل ربما تعلم أموراً خطيرة لا يريد القاتل أن تُعرف أو تُذاع.

- هذا ما خطر لي.

- وهذا معناه أن بين أعضاء الرحلة شخصاً تعرّف على الآنسة تمبل ولم تتعرف هي عليه بسبب مُضيّ السنين، وقد أراد ذلك الشخص أن يتخلّص منها لأنها تعرف من أمره ما لا يودّ أن يعرفه الآخرون. إذن يجب أن نبحث عن الفاعل بين أعضاء الرحلة. هل قلتَ إن قميصه كان منقوشاً بمربّعات سوداء وحمراء؟

- نعم.

- هذان لونان يلفتان النظر، ولذلك تذكّرَتهما جوانا. أصغِ إليّ، عندما تصف شخصاً رأيتَه من بعيد فأول شيء تصفه هوَ ثيابه لا وجهه أو مِشيَته، وقد حرص الفاعل على ارتداء قميص

ذي ألوان صارخة تلفت نظر من يراها، والمراد من ذلك أنه متى خلع القميص وتخلّص منه بأن أرسله في طرد بريدي إلى مكان يبعد مئات الأميال أو أحرقه فيكون بذلك قد تخلّص من الدليل وأبعد عنه الشبهات.

- هذا رأي سديد.

- وغالباً سيكون الفاعل رجلاً لا امرأة؛ فقد ألقى الحجَر بدقّة لا يستطيعها إلا رجل، هذا إذا كان قد أُلقي عمداً. وثمة ملاحظة أخرى هي أن مدرسة فالوفيلد، حيث كانت تعمل الآنسة تمبل، تقع على بُعد ستة عشر ميلاً من هنا، وهذا يوسّع دائرة الاحتمالات. وبالمناسبة، هل تعرف هذه المنطقة جيداً يا سيد وانستيد؟

- لستُ أعرف عنها أكثر مما سمعتُ وأنا أتقصّى الحقائق في اليومين الأخيرين، فقد قيل لي إنها كانت في إحدى الفترات مسرحاً لسلسلة من الجرائم، ولا عجب في ذلك؛ فكل منطقة في إنكلترا قد اجتاحتها في وقت ما موجة من الجرائم. كذلك قيل لي إن فتاتين اختفتا من هذه القرية في وقت واحد تقريباً، وكانت إحداهما هي التي وُجدت جثّتها بعد ستة شهور من اختفائها واتُّهم مايكل رافيل بقتلها.

- وماذا عن الثانية؟

- والثانية تُدْعى نورا برود، وكانت لها صلات بكثير من الفتيان ولم يكن سلوكها فوق الشبهات، ولم يُعثر على جثّتها، ولكن من المؤكّد أن الجثة ستظهر يوماً ما فأنا أعرف قضايا ظهرت فيها الجثة بعد وقت طويل. ها قد وصلنا إلى المستشفى.

تبعَت الآنسة ماربل الأستاذ وانستيد إلى داخل المستشفى، ويبدو أن قُدوم وانستيد كان متوقَّعاً؛ فقد ذهبوا به على الفور إلى غرفة صغيرة يتصدّرها مكتب تجلس إليه امرأة في نحو الأربعين من عمرها يبدو أنها رئيسة الممرّضات، فنهضَت الممرّضة لاستقبال الزائرَين وهي تقول: الأستاذ وانستيد، والسيدة...

فقال وانستيد: هذه الآنسة جين ماربل التي تحدّثتُ عنها هاتفياً إلى الآنسة باركر الممرّضة.

- حسناً، الآنسة باركر تنتظر قدومكما.

- وكيف حال الآنسة تمبل؟

- يؤسفني أن أقول إنه لم يطرأ عليها أيّ تحسُّن. سأصحبكما إلى الآنسة باركر.

كانت الآنسة باركر امرأة طويلة نحيفة الجسم ذات صوت خافت حاسم وعينين سوداوين تنظران إليك بسرعة ثم تنصرفان عنك بطريقة تُشعرك بأن صاحبتهما قد ألَمَّت بك تماماً وقيّمتك في تلك اللحظة القصيرة وأصدرت حُكمها عليك.

قال لها وانستيد: أنا لا أعرف الترتيبات التي استقرّ عليها رأيك.

فأجابت: يحسُن بي أن أوضّحها للآنسة ماربل. الآنسة تمبل لا تزال في غيبوبة تامة تتخللها لحظات قصيرة من اليقظة والوعي، وفي تلك اللحظات تفيق إلى نفسها وتتعرّف على ما حولها فتنطق ببضع كلمات، ولكن لا توجد هناك أية وسيلة لإيقاظها، وكل ما نستطيعه هو أن نتذرّع بالصبر وننتظر. وأظن أن الأستاذ

وانستيد قد أنبأك بأنها ردّدت اسمك في إحدى لحظات يقظتها وقالت: "الآنسة جين ماربل، أريد أن أتحدّث إليها"، ثم راحت في غيبوبة. وقد نصح الطبيب بالاتصال بالقائمين على الرحلة، وجاء الأستاذ وانستيد فأوضحنا له الموقف وقد وعد بإحضارك. كل ما نرجوه منك الآن هو أن تجلسي في الغرفة الخاصة التي ترقد فيها الآنسة تمبل وأن تسجّلي كل كلمة تنطق بها متى عادت إلى وعيها، وحيث إنك لست من أقاربها لن يزعجك النبأ. أقول لك بصراحة ومع الأسف إن الطبيب يعتقد أن حالة الآنسة تمبل تتدهور لحظة بعد أخرى وإنها قد تموت قبل أن تستردّ وعيها، فليس في مقدورنا عمل شيء لإزالة الارتجاج، ومن المهم أن يسمع أحد ما سوف تقول، كما يرى الطبيب أنه من الأفضل ألاّ ترى المريضة أشخاصاً كثيرين حولها إذا استيقظت حتى لا تشتّت أفكارها، ولذلك لن يكون بالغرفة سوى ممرّضة سوف تتوارى خلف حاجز بحيث لا تراها المريضة ورجل شرطة مهمّته أن يسجّل ما يسمع، وسوف يتوارى كذلك عن عينَي المريضة، وبذلك لن ترى المريضة عندما تفتح عينيها سوى الشخص الذي تنتظره، فهل يضايقك أن تقومي بهذه المهمة؟

فأجابت الآنسة ماربل: لا، إطلاقاً، ثم إن لي ذاكرة قوية تستوعب ما أسمع حتى ولو كان مجرّد همس، ولن أكون بحاجة إلى ورق وقلم.

فومضت في عينَي الآنسة باركر نظرة تنمّ عن الارتياح وقالت: أنا واثقة من أننا نستطيع الاعتماد عليك، أمّا الأستاذ وانستيد فسوف ينتظر بقاعة الاستقبال كي نستعين به إذا قضت الضرورة. والآن تعالَي معي يا آنسة ماربل.

فسارت الآنسة ماربل معها في دهليز طويل ينتهي بغرفة صغيرة، وعلى فراش في تلك الغرفة الخافتة الضوء كانت ترقد إليزابيث تمبل وقد كانت أشبه بتمثال، ولكن الناظر إليها لا يشعر بأنها نائمة. وقد كانت أنفاسها القلقة تتردّد في شهقات خافتة، فانحنت الآنسة باركر فوقها لتفحصها، ثم أشارت إلى مقعد بجوار الفراش فجلست عليه الآنسة ماربل، وعندما همّت الآنسة باركر بالانصراف خرج شاب من وراء حاجزٍ هناك وفي يده قلم ودفتر مذكّرات، فقالت له الآنسة باركر بهمس: هذه أوامر الطبيب.

ثم التفتت إلى الممرضة التي كانت تجلس خلف الحاجز وقالت: اطلبيني إذا لزم الأمر، وضعي نفسك تحت تصرّف الآنسة ماربل.

كان جوّ الغرفة دافئاً فخلعت الآنسة ماربل معطفها وأعطته للممرضة، ثم جلست تنظر إلى إليزابيث تمبل فأُعجبَت بقَسَمات وجهها وارتفاع جبينها وجمال شعرها. كانت امرأة جميلة وشخصية ممتازة، ولكن من بواعث الأسف حقاً أن تغيب عن هذه الدنيا.

ومرّ الوقت، عشر دقائق، عشرون دقيقة، نصف ساعة، خمس وثلاثون دقيقة، و فجأة وعلى غير انتظار انبعث صوت خافت ولكنه واضح، صوت يخلو من الرنين الذي أَلِفته الآنسة ماربل. قال الصوت: الآنسة ماربل؟

وفتحت إليزابيث عينيها ونظرَت بغير انفعال أو دهشة إلى وجه المرأة التي تجلس أمامها ثم قالت: هل أنت جين ماربل؟

- نعم، أنا جين ماربل.

- لقد حدّثني هنري كثيراً عنك.

- هنري؟

- هنري كليثرنج، هو من أقدم أصدقائي وأكرمهم علي.

- هنري كليثرنج؟ هو صديقي أيضاً.

ثم عادت بها الذاكرة إلى سنوات مضت حين عرفت السير هنري كليثرنج، فتذكّرت خدماته لها وخدماتها له. لقد كان من أخلص الأصدقاء حقاً.

قالت إليزابيث تمبل: لقد تذكّرتُ اسمك حين قرأتُ أسماء أعضاء الرحلة، في استطاعتك أن تفعلي شيئاً، ولو كان هنري هنا لقال ذلك. أجل، بوسعك أن تبحثي وأن تفعلي شيئاً، وهذا أمر مهمّ، مهم جداً، رغم مرور سنوات عديدة.

ثم خفَت صوتها قليلاً وأغمضت عينيها فخرجت الممرضة من مخبأها وقرّبَت كوباً من شفتَي الآنسة تمبل، فارتشفت جرعة منه، ثم أشاحت بوجهها فرفعت الممرّضة الكوب وعادت إلى مقعدها، فقالت الآنسة ماربل: سأبذل قصارى جهدي وأعمل ما أستطيع عمله.

- حسناً، حسناً.

ثم أغمضت عينيها مرة أخرى وبدت كأنها نائمة أو في غيبوبة، ولكنها عادت ففتحت عينيها فجأة وقالت: مَن هي؟ ذلك ما يجب معرفته. هل فهمت ما أعني؟

- أظن ذلك، أنتِ تعنين فتاة تُدعى نورا برود، أليس كذلك؟

فقطبت إليزابيث تمبل جبينها وقالت: لا، لا، الفتاة الأخرى، فيريتي هانت.

وصمتت لحظة ثم قالت: جين ماربل، لقد تقدّمت في السن عما كنت عندما حدّثني هنري عنك، ولكن في مقدورك أن تبحثي، أليس كذلك؟

ثم ارتفع صوتها وازداد إلحاحاً وهي تقول: تكلّمي، قولي إن ذلك في مقدورك، فالوقت ضيّق وأنا أشعر بذلك. ابحثي، وربما تتعرّضين للخطر ولكنك ستنجحين.

- سأبحث، وليشُدّ الله أزري.

كان ذلك عهداً وقَسَماً، فتنهّدت إليزابيث تمبل بارتياح وأغمضت عينيها ثم فتحتهما، وارتسمت على شفتيها شبه ابتسامة ثم همست بعد قليل قائلة: تلك الصخرة التي انحدرت عليّ...

- مَن الذي ألقاها؟

- لا أعلم، وذلك لا أهمية له، ولكن المهمّ هو فيريتي. ابحثي عن الحقيقة.

ثم لاحظت الآنسة ماربل استرخاء جسدها على الفراش وسمعتها تهمس بصوت خافت: وداعاً. ابذلي قصارى جهدك.

ثم أغمضت الآنسة تمبل عينيها فهُرعت إليها الممرضة

وجسَّت نبضها، ثم ابتعدت وأشارت إلى الآنسة ماربل أن تتبعها إلى الخارج فأطاعت، وهناك قالت الممرضة: لقد بذلَت مجهوداً كبيراً، ولن تعود إلى وعيها إلا بعد وقت طويل، وقد لا تعود إطلاقاً. أرجو أن تكوني قد عرفتِ شيئاً منها.

- لا أعتقد.

وسألها وانستيد وهما في طريقهما إلى السيارة: هل قالت لك شيئاً؟

- لقد ذكرَت اسماً، فيريتي. هل هو اسم الفتاة؟

- نعم، فيريتي هانت.

وماتت إليزابيث تمبل بعد ساعة ونصف الساعة دون أن تفيق من غيبوبتها.

* * *

الفصل الرابع عشر

فيريتي

قالت الآنسة ماربل فجأة بصوت واضح وهي تعمل بإبرتها: فيريتي؟

وكانت إليزابيث تمبل قد ماتت بهدوء في الليلة السابقة، وقد تحدّدت الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي لتحقيق حادث مصرعها، ووافق أعضاء الرحلة على حضور جلسة التحقيق، وقرّر بعضهم البقاء للاشتراك في الجنازة التي ستقام لها.

وقد ذهبت لافينيا إلى الفندق وألحّت على الآنسة ماربل كي تعود للإقامة في البيت القديم إلى أن يحين موعد الرحيل، فقالت لها: إقامتك معنا ستجنّبك مضايقات رجال الصحافة.

فوافقت الآنسة ماربل خاصة وأن أكثر زملائها عدلوا عن مواصلة الرحلة وقرّروا العودة إلى لندن. وبينما كانت تعمل بإبرتها في قاعة الاستقبال بعد أن تناولت القهوة مع الشقيقات الثلاث تذكّرَت آخر شيء نطقت به إليزابيث تمبل قبل موتها فألقت به فجأة وسط السكون كالذي يلقي بحجَر في بحيرة

هادئة، ونظرت حولها بسرعة لترى ردّ الفعل. وكانت لافينيا تقرأ كتاباً فتركته ونظرت إلى الآنسة ماربل بدهشة، ورفعت كلوتيلد رأسها بغتة وانحنت إلى الأمام ونظرت إلى النافذة، ورغم أن الآنسة ماربل أسدلت أهدابها حتى تبدو وكأنها لا ترى ما حولها إلا أنها لاحظت أن الدموع ملأت عينَي كلوتيلد وسالت على خدّها وأن كلوتيلد لم تحرّك ساكناً لمسحها ولم تنطق بكلمة، أمّا أنثيا فردّ الفعل بالنسبة إليها كان سريعاً وواضحاً وينمّ عن السرور والارتياح، فقد هتفت قائلة: فيريتي؟! هل قلت فيريتي؟ هل كنتِ تعرفينها؟ هل تعنين فيريتي هانت؟!

فقالت الآنسة ماربل: أنا لم أعرف قط أحداً بهذا الاسم.

ثم تركت إبرتها ونظرت حولها وارتسمت في عينيها نظرة اعتذار كمن يدرك أنه ارتكب غلطة جسيمة لا يعرف كنهها، فقالت: أنا آسفة. هل قلتُ شيئاً لم يكن من الواجب أن أقوله؟

فقالت لافينيا: لا، لا، كل ما في الأمر أننا نعرف هذا الاسم.

فقالت الآنسة ماربل معتذرة: لقد مرّ بخاطري، وكنتُ قد سمعتُه أمس من الآنسة تمبل. لقد كانت في غيبوبة فذهب بي الأستاذ وانستيد إليها في المستشفى ظناً منه أنني أستطيع أن أرفع من روحها المعنوية، وليس لأنني كنتُ صديقتها في أيّ وقت، وإنما لأننا كنا نجلس معاً ونتجاذب أطراف الحديث خلال الرحلة. لكنني للأسف لم أستطع أن أفيدها بشيء، فقد جلستُ بجوار فراشها وانتظرتُ فسمعتُها تنطق بكلمة أو كلمتين لا معنى لهما، وأخيراً فتحَت عينيها ونظرَت إليّ طويلاً، ولعلها

ظنّتني شخصاً آخر ثم نطقَت باسم «فيريتي»، وقد استقرّت هذه الكلمة في ذهني خاصة وأنها أسلمت الروح بعد ذلك، فهل لكلمة «فيريتي» معنى آخر غير الحقيقة؟

قالت ذلك وراحت تنقل بصرها بين لافينيا وكلوتيلد وأنثيا، فقالت لافينيا: هذا اسم فتاة كنا نعرفها، ولذلك دهشنا.

وقالت أنثيا: ولا سيّما وأنها قد ماتت ميتة مخيفة.

فقالت كلوتيلد: أنثيا، لا ضرورة لهذه التفصيلات.

فقالت أنثيا وهي تنظر إلى الآنسة ماربل: هذه تفصيلات يعرفها الجميع، وكنتُ أظنك تعرفينها بحكم صلتك بالسيد رافيل، فقد كتب إلينا عنك ففهمت أنك لا بدّ تعرفينه وأنه ربما روى لك القصّة كلّها.

فقالت الآنسة ماربل: أنا آسفة، فأنا لم أفهم شيئاً مما تقولين.

فقالت أنثيا: لقد وُجدَت جثتها في حفرة.

كان من الواضح أن أنثيا متى انطلقت فلا أحد يستطيع إسكاتها، وقد لاحظت الآنسة ماربل أن كلام أنثيا يشدّ أعصاب كلوتيلد التي ما لبثَت أن أخرجت منديلها وجفّفت دموعها، ثم اعتدلت في جلستها وقالت وفي عينيها حزن عميق: فيريتي هو اسم فتاة كانت تقيم معنا، وكنتُ أحبّها من كل قلبي.

فقالت لافينيا: وقد كانت تحبّك أيضاً.

قالت كلوتيلد: كان أبواها صديقيّ، وقد قُتلا في حادث طائرة.

فقالت لافينيا: وكانت تتلقّى العلم في مدرسة فالوفيلد، ولعل ذلك هو السبب في أن الآنسة تمبل تذكّرتها.

فهتفت الآنسة ماربل: نعم، فهمت. لقد كانت الآنسة تمبل مديرة تلك المدرسة، أليس كذلك؟

فقالت كلوتيلد: بلى، وكانت فيريتي من تلميذاتها، فلما مات أبواها جاءت إلى هنا للإقامة معنا ريثما تتّخذ قراراً بشأن مستقبلها، وكانت وقتئذٍ في الثامنة عشرة من عمرها، وكانت فتاة حلوة دمثة الخلق ممتلئة عطفاً وحناناً، وقد فكّرَت في أن تعمل بالتمريض ولكنها كانت على جانب عظيم من الذكاء فأصرَّت الآنسة تمبل على ضرورة دخولها الجامعة، وكانت تستعدّ لذلك حين وقع الحادث الرهيب.

قالت ذلك وأشاحت بوجهها ثم أردفت قائلة: حبّذا لو تركنا الحديث في هذا الموضوع الآن.

فهتفت الآنسة ماربل: أجل، أجل، كم أنا آسفة على أنني أثرتُ هذه الذكريات المؤلمة! الواقع أنني لم أكن أعلم، أعني أنه لم يبلغني...

وأُرتِج عليها القول فلاذت بالصمت، ولكنها علمَت المزيد في المساء؛ فقد جاءتها لافينيا وهي تستبدل ثيابها استعداداً للذهاب إلى الفندق فقالت لها: لقد خطر لي أن أوضّح لك موضوع فيريتي هانت، ومن الطبيعي أنك تجهلين مدى حبّ كلوتيلد للفتاة وهول الصدمة التي أصابتها عقب مصرعها، لذا نحن نتجنّب الحديث عن الفتاة أمامها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وستدركين السبب متى أوضحتُ لك الحقائق. يبدو أن

الفتاة اتصلت دون علمنا بشاب غير مرغوب فيه ظهر فيما بعد أنه شخص خطر له سجلّ حافل بالجرائم، وكان ذلك الشاب قد جاء لزيارتنا لأننا نعرف أباه جيداً.

وصمتت لافينيا ثم قالت: أظن أنه يحسن بي أن أذكر لك الحقيقة كلّها. لقد كان ذلك الشاب في الواقع هو ابن السيد رافيل، واسمه مايكل.

- أحقاً؟! لقد سمعتُ فعلاً أن للسيد رافيل ابناً سيئ السلوك.

- بل هو أكثر من ذلك، فهو لصّ ومزوّر وذئب أعراض، وقد حُوكم أكثر من مرة بتهمة الاعتداء على الفتيات. وكانت أمّه صديقتنا، ولعل من حظّها أنها ماتت في مقتَبل العمر فلم ترَ الهوّة التي تَردّى فيها ابنها. وقد فعل السيد رافيل كلّ ما يستطيع من أجل ابنه، فأوجد له أعمالاً تناسبه ودفع الغرامات التي حُكم عليه بها واستخدم أبرع المحامين للدفاع عنه في المحاكم.

وصمتت قليلاً ثم استطردت قائلة: وذات يوم خرجَت فيريتي لزيارة إحدى صديقاتها ولم تعُدْ، فأبلغنا الشرطة فبحثوا في كل مكان ولكنهم لم يقعوا لها على أثر، ثم أعلنّا في الصحف عن فقْدها وأذاعت الشرطة نشرة بأوصافها، وكان رجال الشرطة قد بدؤوا في مراقبة مايكل لاشتباههم في أن له يداً في سلسلة الجرائم التي حدثت في المنطقة في تلك الفترة، ولكنهم لم يتوصّلوا إلى دليل حاسم يدينه، ثم راجت في تلك الأثناء إشاعة بأن فيريتي شوهدت مع شاب يشبه مايكل وفي سيارة كسيارته، ولكنه لم يقُم دليل على صدق تلك الإشاعة، إلى أن وُجدَت

جثة الفتاة بعد ستّة أشهر من اختفائها في بُقعة مهجورة على بُعد ثلاثين ميلاً، وقد ذهبَت كلوتيلد للتعرّف عليها وعرفتها رغم التشويه الذي أصاب وجهها، عرفتها من علامة في جسدها ومن ثيابها ومن محتويات حقيبتها، وكانت صدمة قاسية لها لم تبرأ منها قطّ. وكانت الآنسة تمبل مشغوفة بالفتاة أيضاً، ولا بدّ أنها تذكّرتها حين ردّدت اسمها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

* * *

الفصل الخامس عشر

التحقيق

سارت الآنسة ماربل ببطء في طريقها إلى المحكمة لمتابعة جلسة التحقيق في حادث مصرع إليزابيث تمبل، ثم نظرت إلى ساعتها فوجدَت أنها تستطيع أن تقضي نحو عشرين دقيقة في مشاهدة معروضات المتاجر بالشارع الرئيسي قبل أن يحين موعد انعقاد المحكمة، فدخلت متجراً للخيوط والملابس الصوفية وطلبت من صاحبته -وهي سيدة عجوز- لفافة من الخيوط ذات اللون الوردي تضارع تلك التي كانت تحيكها، فعرضت عليها السيدة بضعة نماذج حتى وجدت بينها الآنسة ماربل بُغيَتها.

ولاحظت صاحبة المتجر أن العميلة غريبة عن المنطقة وأنها لا بدّ وأن تكون من أعضاء الرحلة، وكان من الطبيعي في أثناء العرض والبحث والمقارنة بين ألوان الصوف أن يدور الحديث حول الموضوع الذي يجري على ألسنة الناس في القرية وهو موضوع الحادث المؤلم الذي وقع عند سفح التلّ، ففهمَت الآنسة ماربل مما ذكرَته صاحبة المتجر أنه ليس الحادث الأوّل من نوعه وأن ثلاثة أو أربعة أشخاص ذهبوا من قبل ضحيّة

انهيار الصخور من فوق التلّ وأن الناس في القرية يُرجِعون تلك الحوادث إلى الأمطار والسيول التي تزيل ما بين الصخور من رمال فتزعزها وتضعف بعضها ببعض فتنهار.

وفي نهاية الحديث دفعَت الآنسة ماربل ثمن الخيوط التي ابتاعتها وتظاهرت بالانصراف، ولكنها ما بلغَت الباب حتى عادت أدراجها كمن تذكّر أمراً وقالت: هل أجد عندك قميصاً من الصوف لابن أخي؟ أعني قميصاً ذا ياقة مرتفعة وألوان صارخة من النوع الذي يرتديه الشباب في هذه الأيام، وحبّذا لو كانت نقوشه على شكل مربعات حمراء وسوداء.

فعرضَت عليها صاحبة المتجَر مجموعة من القمصان المتعددة الألوان وقالت إنه لا يوجد لديها ولم يَرد إليها قطّ قمصان ذات مربعات حمراء وسوداء، فراحت الآنسة ماربل تفحص القمصان ثم قالت كأنما قالت عرَضاً: بمناسبة حادث التلّ يُخيّل إليّ أن تلك المنطقة منكوبة بالحوادث المفجعة؛ فقد قرأتُ مرة عن سلسلة من جرائم القتل ذهب ضحيّتها عدد من الفتيات.

فهتفت صاحبة المتجر: أجل، هذا صحيح. فقد كان ذلك منذ بضعة أعوام وقد قبضوا على المجرم، وهو شاب وسيم ظريف كان يبدو فوق الشبهات، ثم ثبت أن له سجّلاً حافلاً رغم أنه ينتمي إلى أسرة كريمة وأن أباه رجل واسع الثراء، وقد حامت الشبهات في البداية حول عدد من الشبّان ثم أُطلِق سراحهم. وأخيراً عثروا على جثة فتاة ظنوا أنها نورا برود التي اشتُهرت بمغامراتها مع الشبان.

- ألم تكن جثتها؟

- بل كانت جثة فتاة أخرى اختفت في نفس الفترة.

- ألم يعثروا على جثة نورا برود؟

- ربما يعثرون عليها يوماً ما، ولكن الرأي السائد أنها أُلقيَت في النهر.

- وماذا عن الأخرى، أعني الفتاة التي وُجدت جثتها؟

- الأخرى؟ نعم، اسمها لا يحضرني الآن، لكنها كانت تُقيم في البيت القديم منذ مصرع أبوَيها في حادث طائرة.

- هل كان لها أقارب في ذلك البيت؟

- لا أدري، ولكن يبدو أن الآنسة كلوتيلد كانت صديقة لأمّها، وكانت كلوتيلد تحبّ الفتاة كثيراً، وقد تحطّم قلبها عندما اختفت، هذا بخلاف الآنسة أنثيا.

- الآنسة أنثيا هي الأخت الصغرى فيما أعتقد.

- أجل، وهي فتاة غريبة الأطوار تتحدّث إلى نفسها وتحرّك رأسها بطريقة غريبة، والأطفال يخافونها ويفرّون منها.

- والآنسة كلوتيلد، أهي غريبة الأطوار أيضاً؟

- لا، إنما هي ذكية وبارعة وتعرف اللاتينية واليونانية، وكانت تحبّ تلك الفتاة وتعاملها كابنتها، إلى أن جاء ذلك الشيطان المدعو... ماذا كان اسمه؟ نعم، كان اسمه مايكل فيما أعتقد، ولكني لا أظن أن الآنسة كلوتيلد كانت تعلم أن الفتاة حامل.

- وهل كنتِ أنت تعلمين؟

- للحمل علامات لا تخطئها العين.

ثم ودّعتها الآنسة ماربل وانصرفت، وذهبَت إلى مكتب البريد حيث ابتاعت بعض الطوابع، وكان المكتب خالياً من العملاء، فقالت لموظّفة البريد: هل يضايقك أن أسألك معروفاً؟ يبدو أنني أصبحتُ في الفترة الأخيرة كثيرة الخطأ والنسيان بسبب تقدُّم السنّ. لقد أرسلتُ طرداً يحتوي على بعض الملابس الصوفية إلى إحدى المؤسّسات الخيرية، ولكنني اكتشفت صباح اليوم أنني أخطأتُ العنوان، فهل لديك قائمة بعناوين الطرود التي تُرسَل من المكتب؟ فالعنوان الذي أردتُ إرسال الطرد إليه هو الجمعية الخيرية لعمّال أحواض السفن.

فنظرَت موظفة البريد إلى محدّثتها طويلاً وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة عطف وإشفاق ثم قالت: هل أحضرت ذلك الطرد بنفسك؟

- لا، فأنا أقيم في البيت القديم، وقد تفضّلَت إحدى الشقيقات بإحضاره، وأظنّها الآنسة كلوتيلد.

- كان ذلك يوم الثلاثاء فيما أعتقد، ولكن التي أحضرَت الطرد هي الآنسة أنثيا، الأخت الصغرى.

- أجل، أجل، أظن ذلك. كثيراً ما أنسى!

فقالت الموظفة وهي تبحث في دفتر أمامها: كان طرداً متوسّط الحجم فيما أذكر، أمّا العنوان الذي أُرسل إليه فهو جمعية أيستهام لمساعدة النساء والأطفال.

- ما أشدّ غبائي! لقد خلطتُ بين الجمعيتين! هل أستطيع

أن أصحّح العنوان؟

- هذا مستحيل، فقد أُرسل الطرد فعلاً.

- لا بأس، سأكتب إلى الجمعية لتحويله إلى العنوان المقصود. شكراً جزيلاً لك.

ثم غادرت الآنسة ماربل مكتب البريد لتجد نفسها وجهاً لوجه أمام أملين برايس وجوانا كروفورد، فلاحظَت أن الفتاة شديدة امتقاع الوجه. قالت جوانا: أنا خائفة؛ فقد طُلبتُ للإدلاء بأقوالي، وأنا لا أعرف الأسئلة التي سيلقونها عليّ، وقد ذكرتُ لرجل الشرطة كل ما أعرفه!

فقال أملين برايس: لا تنزعجي يا جوانا، هذا تحقيق ابتدائي يتولاّه أحد الأطبّاء عادة. سيلقي عليك بعض الأسئلة وسترين له ما رأيت.

- ولكنكَ رأيت ما رأيتُه أيضاً.

- أجل، لقد رأيتُ شخصاً فوق التلّ.

- لقد ذهبوا إلى الفندق وفتّشوا أمتعتنا.

فقالت الآنسة ماربل: لا بدّ أنهم كانوا يبحثون عن قميص ذي مربّعات سوداء وحمراء فلا تنزعجي، فلو كان لديك مثل هذا القميص لما تحدّثتِ عنه.

فقال أملين برايس: أنا شخصياً لا أستطيع تمييز الألوان جيّداً.

فقالت جوانا: لم يجدوا بين أمتعة الركّاب قميصاً بهذه

الصفة، وهل رأيتَ أنت أحدهم يرتدي مثل هذا القميص؟

- لا أظن ذلك، ثم إنني ما كنتُ لأتبيّنه لو أنني رأيتُه؛ فأنا لا أستطيع التمييز بين الأخضر والأحمر.

فقالت جوانا: آه، لقد نسيتُ أنك مصاب بعمى الألوان!

* * *

كان الدكتور ستوكس الذي يتولى التحقيق رجلاً في العقد الرابع من عمره وخط الشيب شعره. وكان قد استمع إلى تقرير رجال الشرطة أولاً، ثم إلى التقرير الطبّي عن الإصابة وارتجاج المخّ اللذَين نجمَت عنهما الوفاة، ثم أدلت السيدة ساندبورن بشهادتها عن الرحلة والحادث، فقالت إن إليزابيث تمبل كانت موفورة النشاط رغم بلوغها سنّ الستّين وإنها كانت تتقدّم زملاءها بمسافة طويلة في الممرّ المؤدّي إلى القمّة عندما وقع الحادث.

- هل تعتقدين أن الحادث عرَضي وقع قضاء وقدراً؟

- نعم، فهو لا يمكن أن يكون غير ذلك.

ثم جاء دور جوانا كروفورد فذكرَت اسمها وسنّها، ثم سألها الدكتور ستوكس فقال: هل كنت تسيرين مع أعضاء الرحلة؟

- لا، لقد كنتُ أسلك طريقاً جانبياً غير الممرّ المألوف.

- هل كان معك أحد؟

- نعم، كان معي السيد أملين برايس.

- هل سِرْتما بعيداً عن الآخرين؟

- نعم، أغلب الوقت.

- وهل رأيتِ الآنسة تمبل؟

- نعم، وكانت تسبق الآخرين، وقد رأيتها وهي تنحرف في إحدى الزوايا ثم اختفت عن بصري تماماً.

- وهل رأيتِ أحداً فوق قمّة التلّ؟

- نعم، رأيتُ شخصاً منحنياً خلف صخرة ضخمة عند الحافّة وهو يحاول زحزحتها من مكانها.

- هل كان الشخص رجلاً أم امرأة؟

- لا أستطيع أن أجزم، ربما كان رجلاً وربما كان امرأة، ولكن من المؤكّد أنه كان يرتدي قميصاً من الصوف ذا ياقة مرتفعة.

- وماذا كان لون القميص؟

- كان منقوشاً بمربّعات سوداء وحمراء زاهية اللون، وكان الشخص يضع على رأسه قبّعة يتدلّى من تحتها شعر طويل قد يكون شعر رجل أو امرأة.

فقال الدكتور ستوكس: من المؤكّد أن التعرّف على الرجل أو المرأة من شعر الرأس أمر متعذّر في هذه الأيام! وماذا حدث بعد ذلك؟

- هبط الحجر من فوق القمّة، وقد تدحرج ببطء أولاً ثم ازدادت سرعته وسمعنا صوت انقضاضه وخيّل إليّ أنني سمعتُ

في نفس الوقت صرخة، ولكنني لست واثقة من ذلك.

- ثم ماذا؟

- أسرعنا نحو أحد الأركان ورأينا الحجَر في الممرّ وتحته شخص.

- هل صدرَت تلك الصرخة من الآنسة تمبل؟

- أظن ذلك. لقد كان الموقف رهيباً.

- وماذا حدث للشخص الذي رأيتِه في قمّة التلّ؟ أعني الرجل أو المرأة ذات القميص الأحمر والأسود. هل بقي ذلك الشخص في مكانه؟

- لا أعلم؛ فقد كنتُ أنظر إلى مكان الحادث وأهرول نحوه لأرى إذا كان بوسعي أن أفعل شيئاً أم لا.

- هل يمكن أن يكون ذلك الشخص أحد أعضاء الرحلة؟

- لا، أنا واثقة من ذلك؛ فأنا لم أرَ بين أعضاء الرحلة مَن يرتدي مثل ذلك القميص.

- شكراً لك يا آنسة كروفورد.

ثم دُعي أملين برايس للشهادة فلم تختلف أقواله عن أقوال جوانا، وأخيراً قرّر الدكتور ستوكس أنه لا توجد أدلّة كافية توضّح ما إذا كان الحادث متعمَّداً أم قضاء وقدراً، ثم أرجأ القضية أسبوعين.

* * *

الفصل السادس عشر

زيارة

غادر الجميع قاعة الجلسة في صمت، وسار أعضاء الرحلة في طريقهم إلى الفندق وكانوا يسرعون الخطى، فتخلّفَت الآنسة ماربل وتخلّف معها الأستاذ وانستيد، ثم سألته أخيراً: ماذا سيحدث الآن؟

- أتقصدين القضية؟

- نعم.

- سوف يتولاّها رجال الشرطة للقيام بمزيد من التحرّيات على ضوء الشهادة التي أدلى بها الشابان، فليس في وسع الدكتور ستوكس بعد هذه الشهادة أن يصدر قراراً بأن الحادث وقع بالقضاء والقدر.

ووصلا إلى الفندق في منتصف الساعة الواحدة، واقترحت السيدة ساندبورن تناول بعض العصير قبل الغداء ثم قالت: لقد فهمتُ من الدكتور ستوكس ومن مفتش الشرطة أن بوسعنا أن نستأنف الرحلة، وستُدفَن الآنسة تمبل في الساعة الحادية عشرة

قبل ظهر غدٍ، وقد اتفقتُ مع قسّ القرية بشأن الجنازة، وأرى أن نستأنف الرحلة بعد غدٍ. ولكن سيطرأ على البرنامج بعض التعديلات طبعاً، وقد علمتُ من بعض الأعضاء أنهم يفضّلون العودة إلى لندن، وأنا أفهم شعورهم ولن أحاول التأثير عليهم. ما حدث يدعو إلى الأسف حقاً، ولكنني ما زلتُ أعتقد أنه حدث قضاءً وقدراً؛ فقد سبقته أحداث مماثلة في نفس المكان، ومهما يكن من أمر فالسلطات المحلّية المختصّة سوف تواصل التحقيق، ولذلك أقترح أن نكفّ عن مناقشة الحادث والتعقيب عليه، وأرجو أن يساعد استئناف الرحلة على صرفكم عن التفكير فيه.

وبعد الغداء انتقل وانستيد والآنسة ماربل إلى شرفة الفندق وقال وانستيد: هل ستواصلين الرحلة يا آنسة ماربل؟

فأجابت: لا، وأظن أن ما حدث سيحملني على البقاء هنا بعض الوقت؛ فثمة بعض التحرّيات أودّ أن أقوم بها. وماذا عنك أنت؟

- يجب أن أعود إلى لندن؛ فلديّ أعمال هناك، اللهم إلا إذا رأيتِ أنني أستطيع أن أفيدك هنا بشيء.

- لا، في استطاعتك أن ترحل إذا شئت.

- أنا لم أشترك في هذه الرحلة إلا لأقابلك يا آنسة ماربل.

- وها نحن قد تقابلنا وأفضيتُ إليك بما أعلم.

- هل تشعرين بأن في الجوّ ما يريب وأنه من الضروري

وجودك هنا؟

- نعم، خاصة بعد مصرع الآنسة تمبل الذي أعتقد أنه لم يكن مجرّد حادث عرَضي رغم كل ما قالته السيدة ساندبورن، فثمة أمر أظن أنني لم أذكره لك من قبل. لقد قالت لي الآنسة تمبل مرة أن رحلتها هذه كانت رحلة حَجّ.

- ألم تَقُل لك إلى أين أو لمن؟

- لم تَقُل، ولو أن عمرها امتدّ قليلاً واستطاعت الكلام لصارحتني، ولكن من سوء الحظ أن الموت دهمها بسرعة.

- وما رأيك أنت؟

- رأيي أن شخصاً شرّيراً تعمّد أن ينهي رحلتها قبل أن تصل إلى المكان الذي تقصده أو إلى الشخص الذي تريد مقابلته.

- ألهذا قرّرتِ البقاء؟

- بل يوجد سبب آخر، فأنا أريد أن أعرف المزيد عن فتاة تُدعى نورا برود.

فنظر إليها بدهشة وقال: نورا برود؟!

- هي فتاة اختفت في نفس الوقت مع فيريتي هانت، وأذكر أنكَ حدّثتني عنها، وهي كانت فتاة منحرفة سيئة السيرة لها أكثر من صديق.

* * *

شهد الجنازة غير أعضاء الرحلة أشخاص كثيرون رأت

الآنسة ماربل بينهم لافينيا وكلوتيلد وشخصَين أو ثلاثة من أهل القرية، وأغلب الظنّ أنهم جاؤوا بدافع الفضول بسبب ما أُشيع من أن الحادث ليس قضاءً وقدراً، وكان هناك أيضاً قسّ يناهز السبعين من العمر تبدو عليه مظاهر الضعف والمرض، وقد رجّحَت الآنسة ماربل أنه صديق قديم للآنسة تمبل وأنه ربما قد جاء من مكان بعيد خصّيصاً لشهود الجنازة.

وبعد مغادرة الكنيسة تحدّثت الآنسة ماربل مع زملائها وعرفت ماذا سيفعل كل منهم، فعرفت أن بتلر وزوجته سيعودان إلى لندن وكذلك السيد كاسبار، أمّا الكولونيل ووكر وزوجته والآنسة لوملي وصديقتها الآنسة بنتهام وكذلك السيدة بورتر والمهندس جيمسون فقد قرّروا مواصلة الرحلة، وبقيَت الصديقتان الآنسة بارو والآنسة كوك، وكان تردّدهما واضحاً إلى أن حسمَته الآنسة بارو بقولها: المناظر الطبيعية هنا رائعة، وأظن أننا سنبقى في الفندق بعض الوقت، أوَليس هذا ما ستفعلينه أنت أيضاً يا آنسة ماربل؟

- أظن ذلك، فليست لديّ القدرة على الرحيل، وأعتقد أن راحة يومين أو ثلاثة أيام هنا ستفيدني كثيراً بعد ما حدث.

ثم سار كلٌّ في طريقه، وانحرفت الآنسة ماربل في شارع جانبي وأخرجت من حقيبتها ورقة كانت قد سجّلت عليها عنواناً. وبعد قليل كانت تدقّ باب بيت صغير جميل في نهاية الشارع قبل انحداره نحو المزارع، وفتحَت الباب سيدة ضئيلة الجسم فسألتها الآنسة ماربل قائلة: هل أنتِ السيدة بلاكيت؟

- نعم يا سيدتي، هذا هو اسمي.

- أريد أن أتحدّث إليك دقيقة أو دقيقتين. هل أستطيع الدخول؟ فأنا متعَبة قليلاً وأشعر بدوار.

- ادخلي يا سيدتي وتفضّلي بالجلوس. هل أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك؟

- لا، شكراً، حسبي كوب ماء.

وعادت إليها السيدة بلاكيت بكوب ماء، ثم تحدّثت طويلاً عن قريبٍ لها تعتريه نوبات من الدوار تلقيه أرضاً في بعض الأحيان، وبعد أن فرغت من حديثها قالت الآنسة ماربل: قيل لي إنك عمّة فتاة تُدعى نورا برود، فهل تعلمين أين أجدها؟

- لماذا؟

فأجابت الآنسة ماربل كذباً: لي قريبة في كندا كانت مع نورا في المدرسة، ويبدو أنها وجدَت لها عملاً في كندا.

فهزّت السيدة بلاكيت رأسها ببطء وقالت: أجل، نورا ابنة أخي حقاً ولكنها اختفَت منذ وقت طويل. لقد خرجَت ذات يوم ولم تعُدْ، فقد كانت فتاة حمقاء لا تصلح لشيء. وقد أُشيع أنها قُتلت ولكنني لا أصدّق ذلك، خاصة وأنهم لم يجدوا جثّتها.

- وهل كانت متفوّقة في دراستها؟

- مطلقاً، لقد كانت خاملة لا همّ لها إلا مصاحبة الشبان، وأكبر الظنّ أنها هربت مع أحدهم، وأنا أتوقّع أن تعود ذات يوم بعد أن تكون قد تعلّمَت درساً قاسياً واكتشفَت كذب كل الوعود المعسولة التي تسمعها من الشبان.

- ألم يكن هنا من تستطيع الذهاب إليه غير أسرتها؟

- بل يوجد كثيرون ممن كانوا يعطفون عليها، فمثلاً هناك أهل البيت القديم، وخاصة الآنسة كلوتيلد التي طالما أخلصَت لها النصيحة وقدّمَت إليها الكثير من الهدايا والثياب، ولكن الفتاة كانت تضرب بالنصائح عرض الحائط وتهرع إلى كل شابّ يشير إليها بإصبعه. أعلم أنه لا يجدر بي وأنا عمّتها أن أقول كلاماً كهذا، ولكنها الحقيقة.

- وهل أبلغتم الشرطة عن اختفائها؟

- نعم، ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة. لقد ذهبت الفتاة دون أن تترك كلمة، وقد قيل إنها ركبَت سيارة أحد الشبان ولم يرَها أحد بعد ذلك، أمّا أنا فأعتقد أنها الآن في لندن أو في مدينة كبرى أخرى حيث المال الوفير.

- هل كانت جميلة؟

- لقد كانت أجمل فتيات القرية، وكانت مفتونة بشعرها الأسود الطويل الجميل.

فقالت الآنسة ماربل وهي تهمّ بالانصراف: لا شك أن قريبتي في كندا تجهل كل هذه الحقائق عنها. شكراً يا سيدة بلاكيت، ومعذرة عما أضعتُ من وقتك.

* * *

الفصل السابع عشر

القسّ

عندما عادت الآنسة ماربل إلى الفندق تلهث من التعب هرعت إليها موظفة الاستقبال في الفندق قائلة: يوجد شخص هنا يريد مقابلتك يا آنسة ماربل، هو القسّ بربازون.

فبدت الدهشة على وجه الآنسة ماربل وردّدت قائلة: القسّ بربازون؟!

- نعم، قال إنه بحث عنك وعلم أنك في الرحلة، وهو يريد أن يتحدّث إليك قبل أن تعودي إلى لندن مع العائدين، وقد أجلستُه في بهو التليفزيون بعيداً عن الضوضاء.

فاتجهت الآنسة ماربل إلى البهو الذي ذكرَته لها موظفة الاستقبال فوجدت أن القسّ بربازون هو نفس القسّ العجوز الذي رأته في الكنيسة في الصباح. نهض الرجل واقفاً عندما رآها وقال وهو يقترب منها: الآنسة جين ماربل؟

- نعم، هذا هو اسمي. هل أردت...

- أنا القسّ بربازون، وقد جئتُ صباح اليوم للاشتراك في

جنازة صديقة عزيزة هي الآنسة إليزابيث تمبل.

- حقاً؟ تفضّل بالجلوس.

فجلس وقال: يجب أن أوضّح لك سبب قُدومي. الواقع أنني مررتُ بمستشفى كاريستون فتحدّثتُ إلى كبيرة الممرّضات قبل ذهابي إلى الكنيسة، وهي التي قالت لي إن إليزابيث طلبَت قبل موتها مقابلة إحدى أعضاء الرحلة واسمها الآنسة جين ماربل، وإن الآنسة ماربل زارتها وجلسَت معها فترة قصيرة قُبَيل الوفاة.

قال ذلك ثم نظر إلى الآنسة ماربل بقلق، فقالت: هذا صحيح، وقد أدهشني أن تُرسِل الآنسة تمبل في طلبي.

- هل أنتِ إحدى صديقاتها؟

- لا، إنما قابلتُها لأول مرة في هذه الرحلة، وهذا سبب دهشتي. لقد تحدّثنا معاً وتعارفنا، ولكنني لم أتوقّع أن ترسل في طلبي وهي مريضة.

- الواقع أنها جاءت في هذه الرحلة لزيارتي، أنا أقيم في فيلمنستر التي كان مقرّراً أن تصل إليها حافلة الرحلة بعد غد، وكانت زيارتها لي أمراً متفقاً عليه بيننا؛ فقد أرادت التحدّث إليّ في أمور تهمّها.

- هل لي أن أُلقي عليكَ سؤالاً؟

- سلي ما تشائين يا آنسة ماربل.

- كان مما قالته لي الآنسة تمبل أنها لم تشترك في هذه

الرحلة للمتعة، وإنها بالنسبة إليها أشبه برحلة حَجّ.

- هل قالت لك ذلك؟ هذا كلام له مغزاه.

- ما أريد أن أسألك عنه الآن هو، هل تعتقد أن رحلة الحجّ التي تكلّمَت عنها هي زيارتك؟

- أظن ذلك.

- لقد دار الحديث بيني وبينها عن فتاة تُدْعى فيريتي.

- أجل، فيريتي هانت، لقد ماتت منذ سنوات عديدة، فهل تعلمين ذلك؟

- نعم، ولكن الآنسة تمبل حدّثتني عن أشياء لم أكن أعلم بها، فقد قالت لي إن الفتاة كانت مخطوبة لابن السيد رافيل، والسيد رافيل صديقي أو كان صديقي، وهو الذي دفع نفقات هذه الرحلة، وأعتقد أنه كان يريدني أن أقابل الآنسة تمبل لعلّها تستطيع أن تُدلي إليّ ببعض المعلومات.

- معلومات عن فيريتي؟

- نعم.

- لقد حرصَت على مقابلتي لهذا الغرض، فقد كانت تريد أن تعرف بعض الحقائق منّي.

- كانت تريد أن تعرف لماذا فسخَت فيريتي خِطبتها بابن السيد رافيل.

- فيريتي لم تفسخ الخِطبة، أنا واثق من هذا تمام الثقة.

- هل كانت الآنسة تمبل تعرف هذه الحقيقة؟

- لا، لقد كانت تشعر بالحيرة والتعاسة بسبب ما حدث، وكانت تهدف من زيارتها لي إلى الاستفسار عن الأسباب التي حالت دون إتمام الزواج.

- وما هذه الأسباب؟ أرجو ألاّ تظن أنني أسأل بدافع الفضول، ولكنني أقوم بمهمّة وأودّ أن أعرف لماذا لم يتمّ الزواج بين مايكل رافيل وفيريتي هانت.

فحدّق القسّ إلى وجهها لحظة ثم سألها قائلاً: هل لك صلة بهذا الموضوع؟

- أنا أنفّذ إرادة رجل مات، وهذا الرجل هو والد مايكل رافيل.

فقال القسّ: لستُ أرى سبباً يمنعني من مصارحتك بكل ما أعلم، ولكنك تسألينني عن أمور كان في نية إليزابيث تمبل أن تسألها وهي أمور أنا نفسي أجهلها. لقد كان في نيّة هذين الشابين أن يتزوّجا، وقد أعدّا العُدّة لذلك واتفقا معي على أن أعقد زواجهما، وقد فهمتُ منهما أن الزواج سيكون سرّاً، وكنتُ أعرف الفتاة جيداً منذ التحقَت بمدرسة الآنسة تمبل، فطالما ذهبتُ في زيارات لتلك المدرسة. وكانت فريتي من أجمل الفتيات وأرجحهن عقلاً وأنبلهن خُلقاً، وقد جاءت للإقامة مع الآنسة كلوتيلد عقب مصرع والدَيها في حادث طائرة، فأحبّتها كلوتيلد حبّاً لا حدّ له وفعلت كل ما في طاقتها لإسعادها، وقد وجد هذا صداه في نفس فيريتي فأحبَّت كلوتيلد كما لو كانت أمّها. ولم تشأ كلوتيلد -وهي الذكية المثقفة- أن تُرغِم الفتاة على

دخول الجامعة فتركت لها اختيار طريقها، فاختارت الفتاة الفنون والموسيقى، وأقامت في البيت القديم مع الشقيقات الثلاث وكانت فيما أعلم سعيدة. ولم أرَ فيريتي بعد أن أقامت هنا؛ ففيلمنستر التي أقيم فيها تبعد نحو ستين ميلاً، ولكنني كنتُ أكتب إليها وأتلقّى ردّها بمناسبة الأعياد المختلفة. وقد جاءتني ذات يوم فإذا هي فتاة ناضجة على جانب كبير من الجمال، وكان معها شابّ وسيم هو مايكل ابن السيد رافيل، وقالا لي إنهما متحابّان ويريدان الزواج.

- وهل وافقتَ على عقد زواجهما؟

- نعم، ولعلك تعتقدين أنه ما كان ينبغي لي أن أوافق، ولكنني أدركتُ أنهما جاءا إليّ سرّاً، وتبادر إلى ذهني أن الآنسة كلوتيلد برادبوري ربما لم توافق على ذلك الزواج فحاولَت إحباطه وإنهاء الصلة بين الشابين، ولها كل الحق في ذلك؛ فمايكل رافيل لم يكن الزوج الذي تتمنّاه أية أمّ لابنتها، وكنتُ أعرف أباه وأعلم أنه كان مصدر متاعب لذويه منذ نعومة أظفاره وأنه تورّط في كثير من الجرائم، وقد مَثُل أكثر من مرة أمام محاكم الأحداث، وكانت له صلات بعديد من الفتيات ودخل السجن مرتين. وخلاصة القول أَنه كان شاباً منحرفاً سيئ السيرة، ولكنه كان وسيماً فأحبّته الفتيات وتورّطن معه، وكان إلى جانب ذلك ذكياً كريماً وفياً لأصدقائه. وعندما رأيتهما أمامي لم أتردّد في مصارحة فيريتي بكل ما أعلمه عن الشاب الذي تريد الاقتران به، ولكنني وجدتُ أنه لم يحاول أن يخدعها وأنه صارحها بحقيقته وبمتاعبه مع القانون ومغامراته مع الفتيات والمآزق التي تورّط فيها والمشكلات والأحزان التي جلبها لأبيه، وقد وعدها بأن

يبدأ صفحة جديدة بعد الزواج وبأنّ كل شيء سوف يتغيّر، فحذّرتُها بأن ذلك لن يحدث وبأن شيئاً لن يتغيّر، وقلت لها إن الناس لن يتغيّروا حتى ولو أرادوا، فأجابت: "أنا أعلم يا أبتاه، ولكنني أحبّه وسأحاول أن أصلحه، وقد أنجح في ذلك وقد لا أنجح، وهذه مخاطرة وسأرضخ لتبعاتها".

وصمت القسّ قليلاً ثم استطرد قائلاً: وأقول لك يا آنسة ماربل إنني عقدتُ زواج كثيرين من الشباب، بعضهم سعِد بالزواج وبعضهم شقِي به، ودائماً كنتُ أعرف بفراستي أيّهم الصادق في حبّه وأيّهم الكاذب المخادع، ولست أعني بالحب الجاذبية الجسدية؛ فالجسد لا يمكن أن يحتلّ مكانة الحبّ ولا يمكن أن ينجح إلا به، أمّا الحب فهو العاطفة التي تتضمّن كل معاني الزواج، فهو يتضمّن الإخلاص المتبادل في الغنى والفقر وفي الصحّة والمرض. لكنني شعرت أن هذين الشابّين متحابان وأنه لا توجد قوة يمكن أن تفرّق بينهما إلا الموت. وإلى هنا تنتهي القصة، وليس بوسعي أن أذكر المزيد لأنني لا أعرف ما حدث بعد ذلك، فكل ما أعرفه أنني وافقت على أن أزوجهما، وأنني أعددتُ التدابير اللازمة لذلك وحدّدنا الزمان والمكان. وإذا كان هناك ما أُلام عليه فهو أنني وافقتُ على أن يكون الزواج سرّاً.

- هل أرادا ألاّ يعلم به أحد؟

- نعم، لقد كانت فيريتي تريد ألاّ يعلم به أحد، ومن المؤكّد أن مايكل كان يريد ذلك أيضاً، ولعلهما خشيا أن يتوقّف الزواج لسبب أو لآخر، وأعتقد أن الزواج بالنسبة إلى فيريتي كان يعني شيئاً آخر عدا الحبّ. لقد كان يعني تحقيق رغبتها في

الفرار، وهي رغبة طبيعية تولّدت من ظروف حياتها، فقد فقدت أبوَيها واستقبلت حياتها الجديدة وهي ما زالت تلميذة صغيرة خليقة بأن تُفتَن بالشخصيات القوية أو المحبوبة أو الجميلة التي تراها في محيط حياتها، مثل مدرسة الألعاب الرياضية أو مدرسة العلوم أو أية فتاة أكبر منها سناً فتتّخذها مثلها الأعلى، ولكنه افتتان لا يستمرّ طويلاً لأنه مجرّد مرحلة طبيعية من مراحل الحياة، ثم تأتي بعد ذلك المرحلة الثانية حين تدرك الفتاة أن الشيء الذي يكمِّل نقصها هو صلة الرجل بالمرأة ومن ثَم تبدأ بحثها عن أليف، فإذا كانت عاقلة فسوف تتمهّل حتى يأتي الأليف المناسب. وقد كانت كلوتيلد برادبوري شديدة العطف على فيريتي، وكانت كلوتيلد لها شخصيتها كامرأة، فهي جميلة وجذّابة ومثقّفة، وأعتقد أن فيريتي فُتنَت بها بطريقة رومانسية وأن كلوتيلد أحبَّت فيريتي كما لو كانت ابنتها من لحمها ودمها.

وصمت قليلاً ثم أردف قائلاً: وهكذا ترعرعَت فيريتي ونضجَت في جوّ من الحبّ وعاشت حياة سعيدة مثيرة، ولكنني أظن أنها لم تلبث أن شعرت -دون أن تلاحظ ذلك- برغبة في الفرار، الفرار من الحبّ الذي يحيط بها ويتركّز فيها، الفرار فحسب دون أن تعرف كيف أو إلى أين، ولكنها عرفت حين قابلت مايكل، عرفت أنها تريد الفرار إلى الحياة التي يجتمع فيها الرجل والمرأة لإنجاب الجيل التالي، غير أنها أدركت في ذات الوقت استحالة إقناع كلوتيلد بحقيقة شعورها، وكانت تعلم أنها لن تعترف بهذا الحبّ وتُقِرّه وأنها ستعارضه بكل ما أوتيَت من قوّة. والآن أنا أعترف بأن كلوتيلد كانت على حقّ؛ فمايكل لم يكن الزوج الخليق بفيريتي، والطريق الذي سلكَته الفتاة لم يَقُدها إلى حياة هنيئة سعيدة، ولكن قادها إلى الألم وخيبة الأمل، بل

إلى الموت بأبشع صوَره. أنا أشعر بعُقدة الذنب يا آنسة ماربل لأنني لم أدرك غرض مايكل من كتمان أمر الزواج، أمّا غرض فيريتي فكان مفهوماً، فقد كانت لكلوتيلد شخصية قوية وكان يمكن أن تؤثِّر على فيريتي وتقنعها بالعدول عن الزواج.

– هل تظن أنها فعلت ذلك؟ هل تظن أنها حدّثتها عن مايكل بما يكفي لحملها على فكرة الاقتران به؟

– لا، فلو قد فعلت لاتصلت بي فيريتي وأخبرتني.

– ماذا حدث في اليوم المحدّد للزواج بالضبط؟

– قلتُ لك إننا حددنا اليوم والساعة والمكان، وفي الوقت المحدّد انتظرتُ العروسين ولكنهما لم يحضرا، ولم يبعثا إليّ بكلمة اعتذار، وإلى الآن لم أعرف لماذا. لقد كنت أتوقّع أن يعدلا عن الزواج ولكن ما لم أستطع توقُّعه أو تصديقه هو ألاّ يبعثا إليّ ولو بكلمة واحدة عن أسباب تخلّفهما عن الموعد المتفَق عليه، لهذا رجوتُ أن تكون إليزابيث تمبل قد قالت لك شيئاً في هذا الصدد قبل موتها، أو أن تكون قد حمّلتك رسالة لي.

– لقد كانت تريد أن تعرف ما لديكَ من معلومات. أنا واثقة من أن ذلك كان غرضها من زيارتك.

– ربما كنتِ على حق، أنا أتوقّع أن تكتم فيريتي أمر زواجها عمّن يستطيعون أن يملكوا منعه، مثل كلوتيلد برادبوري أو أنثيا برادبوري، ولكن ليس هناك ما يمنعها من أن تفضي به بطريقة ما إلى شخصية تحبّها ولها تأثير كبير عليها مثل إليزابيث تمبل.

- أظن أنها فعلت ذلك.

- كيف؟

- لقد أخبرتها أنها ستقترن بمايكل رافيل، فقد قالت لي تمبل: "أنا أعرف فتاة تُدْعى فيريتي كانت على وشك الاقتران بمايكل رافيل". والشخص الوحيد الذي كان في استطاعته أن يخبرها بهذا النبأ هو فيريتي، إذن لا بدّ أن تكون فيريتي قد كتبت إليها أو أخبرتها بطريقة ما، وعندما سألتُ الآنسة تمبل لماذا لم يتمّ الزواج أجابت: "لأنها ماتت".

فتنهّد القسّ وقال: كل ما أعلمه هو أن فيريتي ومايكل اتفقا على الزواج، وفي الموعد المحدّد لم يظهر العريس ولم تظهر العروس ولم يبعثا إليّ بكلمة واحدة.

- أليست لديك فكرة عمّا يمكن أن يكون قد حدث؟

- أنا لا أعتقد أبداً أن فيريتي ومايكل يمكن أن يكونا قد اختلفا وافترقا إلى الأبد.

- ولكن لا بدّ أن شيئاً حدث بينهما، شيئاً فتح عينَي فيريتي على حقيقة أخلاق مايكل وشخصيّته التي لم تكن تعرفها من قبل.

- هذا جواب غير مقنع، وحتى لو حدث هذا كانت ستتّصل بي وتخبرني ولا تتركني في انتظارهما، خاصة وأنها معروفة بالأدب والكياسة. لا، لا، ليس هناك سوى شيء واحد يمكن أن يمنعها من القدوم أو الاعتذار.

- أتقصد الموت؟

- نعم، الموت.

فقالت الآنسة ماربل وهي مستغرقة في التفكير: الحبّ.

- ماذا تعنين؟

- ذلك ما قالَته الآنسة تمبل، فسألتُها: "ماذا قلتِ؟" فأجابت: "الحب"، ثم استطردت قائلة: "لا توجد في الدنيا كلمة أشدّ رهبة من كلمة الحبّ".

- أظن أنني فهمتُ.

- هل وجدتَ حلاً؟

- نعم، هذا انفصام الشخصية. أنا لست خبيراً بالمسائل الطبّية والتحليل النفسي ولكنني أعتقد أن مايكل رافيل كان ذا شخصية مزدوجة؛ فهو تارة شاب لطيف مهذّب يبحث عن السعادة وتارة أخرى شخصية مريبة مختلة العقل والشعور لا تتورّع عن قتل أحبّ الناس إليها لغير سبب.

- هل سبق وبدا منه ما يؤيّد إصابته بازدواج الشخصية؟

- لا أدري، كل ما أعلمه أنه كان في مقدّمة المشتبه فيهم عقب اختفاء الفتاة، وقد ظلّ موضع ريبة رجال الشرطة إلى أن وُجدَت الفتاة مخنوقة ورأسها مهشّم بطريقة وحشية لا يقدِم عليها إلا مجنون.

فمرّت بجسد الآنسة ماربل رعدة شديدة واستطرد القسّ قائلاً: طالما تمنيتُ -وما زلت أتمنّى- أن يكون مَن قتلها شخصاً آخر غير مايكل، شخصاً مجنوناً لا يعرف الناس مدى جنونه،

شخصاً قابلَته مصادفة وركبت معه سيارته، ثم...

- هل من المحتمل أن يكون هذا ما حدث فعلاً؟

- لا أعلم، لقد كان موقف مايكل في أثناء المحاكمة مُزرياً، فقد قال أكاذيب كثيرة لا معنى لها واستشهد بأصدقاء كانوا أكذب منه، وكان مذهولاً وخائفاً ولم يقُل شيئاً عن مشروع زواجه بفيريتي، ويبدو أن محاميه نصحه بذلك حتى لا يقال إن الفتاة حملَت منه وأرادَت أن ترغمه على الاقتران بها فتخلّص منها بقَتلها. أنا لا أذكر التفصيلات بعد مضيّ كل تلك السنين، ولكن الأدلّة كانت كلّها ضدّه وكانت جريمته مسطّرة على وجهه.

وسادت لحظة صمت ثم استطرد القسّ قائلاً: أنا حزين يا آنسة ماربل لأنني أسأت الحكم والتقدير ولم أفهم الطبيعة البشرية وشجّعتُ فتاة رقيقة طيّبة على الذهاب إلى حتفها. كنتُ أجهل الخطر الذي يترصّدها، وكنتُ أعتقد أنها إذا شعرت بخوف منه أو اكتشفت ناحية شرّيرة في خُلقه وطباعه فلن تتردّد في إنهاء علاقتها به وستصارحني بما اكتشفَته، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، لذا أتساءل لماذا قتلها. هل قتلها لأنه علم أنها ستلد؟ أم لأنه اتصل بفتاة أخرى ولم يشأ أن يُرغَم على الاقتران بفيريتي؟ أم لأن شيئاً فيه أخافها منه فقطعَت صلتها به فثارت ثائرته وقتلها ومثّل بجثّتها؟ لا أحد يعلم.

- ولكنكَ ما زلت تعلم وتؤمن بأمر واحد.

- ما هو؟

– هو أن هذين العاشقين كانا متحابّين وكانا يعتزمان الزواج فعلاً، ثم حدث شيء منعهما من الزواج، شيء انتهى بموت الفتاة ولولاه لحضرا إليكَ لعقد زواجهما.

– أصبتِ يا سيدتي، أنا لا أستطيع أن أفقد إيماني بعاشقين أرادا الزواج ومواجهة الحياة بحلوها ومرّها، في الغنى والفقر وفي الصحة والمرض.

– لا تتزحزح إذن عن هذا الإيمان؛ فأنا أشاركك فيه أيضاً.

– ولكن ماذا بعد ذلك؟

– لا أعلم، ولكنني أظن أن إليزابيث تمبل كانت تعرف أو بدأت تعرف حقيقة ما حدث، فقد قالت إن الحب كلمة رهيبة، فظننتُ أن الفتاة انتحرت، ربما لأنها اكتشفَت فيمن تحبّ شيئاً أزعجها، ولكن يبدو أن فكرة الانتحار في هذه الحالة مستحيلة.

– الإنسان لا ينتحر بتهشيم رأسه وتشويه وجهه.

– كذلك لا يستطيع عاشق أن يفعل ذلك بفتاة أحبّها، حتى لو اضطُرّ إلى قتلها بدافع الحبّ فهو يقتلها خنقاً ولكنه لا يهشّم الرأس ولا يشوّه الوجه الذي أحبّه.

ثم غمغمت قائلة: الحبّ، يا لها من كلمة مخيفة!

* * *

الفصل الثامن عشر

وداع

وقفَت الحافلة بباب الفندق في صباح اليوم التالي استعداداً لمواصلة الرحلة، واقتربت منها الآنسة ماربل لتودّع زملاءها فوجدت السيدة بورتر تتميّز غضباً وتقول بصوت مرتفع: ما أعجب فتيات هذا الزمن! لا نشاط ولا قدرة على الاحتمال!

فنظرت إليها الآنسة ماربل متسائلة، فاستطردت السيدة بورتر قائلة: أنا أعني جوانا، ابنة أخي.

- ماذا بها؟ هل هي مريضة؟

- تزعم أنها تشعر بالتهاب في الحلق وارتفاع في درجة الحرارة، هذا كلام فارغ طبعاً!

- هل أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلها؟

- من رأيي أن تدعيها وشأنها، فكل هذه أعذار.

فنظرت إليها الآنسة ماربل متسائلة مرة أخرى فقالت السيدة بورتر: ما أغبى الفتيات! دائماً يقعن في الحبّ.

- هل تحبّ أملين برايس؟

- أرى أنك لاحظت ذلك، لكنه شابّ تافه لا يساوي قلامة ظفر، فهو ذو شعر طويل وبنطال ضيّق وقميص ملوّن.

ثم قلبت شفتيها احتقاراً واستطردت قائلة: يبدو أنهما اتفقا على التخلّف هنا لزيارة بعض المناطق الجبلية على مسافة سبعة أو ثمانية أميال سيقطعانها سيراً على الأقدام.

- ولكن، إذا كانت تشعر بالْتهاب في الحلق وارتفاع في درجة الحرارة فهي لن...

- سوف ترين، فبمجرّد رحيل الحافلة سوف يزول الالتهاب وتهبط الحرارة. أظن أنه قد حان موعد الرحيل، وداعاً يا آنسة ماربل.

ونظرت الآنسة ماربل حولها فرأت وانستيد يلوّح بيده مودّعاً المسافرين فقالت له: أريد أن أتحدّث إليك. ألا يوجد هنا مكان هادئ؟

- توجد الشرفة حيث كنا نجلس منذ يومين.

ثم خرجا إلى شرفة الفندق، وهناك قال وانستيد: كنتُ أودّ أن أراك ترحلين بالحافلة في أمان، فماذا يبقيك هنا، هل هو الإرهاق أم شيء آخر؟

- شيء آخر.

- كم أودّ أن أبقى هنا لأعاونك!

- لا ضرورة لبقائك؛ ثمة مهمّة أخرى أريد أن تقوم بها.

- وما هذه المهمة؟

فأخرجَت من حقيبتها قصاصة من الورق قدّمَتها إليه وهي تقول: أريدك أن تذهب إلى هذا العنوان، وهو عنوان إحدى الجمعيات الخيرية، وسَلْ هناك عن محتويات طرد أُرسِل إليهم من مكتب بريد القرية منذ يومين.

قال وهو يتناول الورقة: وهل لهذا الطرد أي أهمية؟

- قد تكون لمحتوياته أهمية عُظمى.

- أرى أن لديك معلومات تودّين الاحتفاظ بسرّيتها.

- هي ليست معلومات مؤكّدة، ولكنها مجرّد احتمالات لا أستطيع أن أجزم بصحّتها.

- هل ثمة شيء آخر؟

- أظن أنه ينبغي لمن يهمّهم الأمر أن يتوقّعوا جثة ثانية.

- أتعنين جثة ثانية لها صلة بالجريمة التي حدثت منذ نحو عشرة أعوام؟

- نعم، أنا واثقة من ذلك.

- جثة ثانية. جثة من؟ أظن أن لدي فكرة عن ذلك.

- وهل لديكَ فكرة عن مكانها؟ لكن لم يَحِن الوقت بعد كي أذكره لك.

- لمن الجثة؟ لرجل أم امرأة أم طفل؟

- هي لفتاة اختفَت من هنا منذ وقت طويل، فتاة تُدعى

نورا برود، وأظن أنني عرفتُ المكان الذي دُفنت فيه.

فحدق وانستيد في وجهها طويلاً ثم قال: كلما عمّيتِ في حديثك قويَت رغبتي في البقاء إلى جانبك لحراستك.

- لا، لا ضرورة لذلك.

- يُخيّل إلي من كلامك أنك تعرفين أشياء كثيرة.

وفي تلك اللحظة فُتح باب الشرفة ودخلت الآنسة كوك والآنسة بارو فهتف وانستيد قائلاً: مرحباً، لقد ظننتُ أنكما رحلتما بالحافلة.

فقالت الآنسة كوك بمرح: لقد عدَلنا عن رأينا في آخر لحظة؛ فقد وجدنا في هذه المنطقة بعض معالم تستحقّ الزيارة، منها كنيسة قديمة تقع على بُعد أربعة أميال، ويمكن الوصول إليها بالحافلة المحلّية؛ فأنا شديدة الاهتمام بهندسة الكنائس.

- هل ستقيمان في هذا الفندق؟

- نعم، ومن حسن الحظ أننا وجدنا به غرفة فسيحة جميلة أفضل من تلك التي أقمنا بها خلال اليومين السابقين.

وهنا نظرَت الآنسة ماربل إلى الأستاذ وانستيد وقالت: أظن أنكَ يجب أن تذهب الآن وإلاّ فاتكَ القطار.

- حسناً، ولكن أرجو...

- كن مطمئناً؛ فأنا أعرف كيف أُعنى بنفسي.

* * *

الفصل التاسع عشر

الآنسة ماربل لها رأي

ما إن همّت الآنسة ماربل بارتشاف قهوتها في شرفة الفندق بعد الغداء حتى رأت شخصاً طويل القامة نحيفاً يقترب منها ويحدّثها وهو لاهث الأنفاس، وكان ذلك الشخص هو أنثيا برادبوري، وقد قالت: كنا نظن أنك رحلت بالحافلة، ولكن الآن علمنا فقط أنك تخلّفت عن الرحلة، وقد أرسلتني كلوتيلد ولافينيا كي أرجوك أن تعودي للإقامة معنا إلى أن يحين موعد رحيلك. سنكون سعداء حقاً إذا أنتِ استجبت لرجائنا.

فقالت الآنسة ماربل: هذا كرم منكنّ، والواقع أنني كنتُ أنوي الرحيل مع الحافلة، ولكنني أحسست بعد ذلك الحادث المؤلم بأنني لن أستطيع مواصلة الرحلة فآثرت أن أستريح هنا ولو ليلة واحدة.

- سيكون أفضل لك أن تقيمي معنا، وسنحاول أن نوفّر لك كل أسباب الراحة.

- أنا لا أشكّ في ذلك، ولست أنكر أنني نعمتُ معكنّ بالراحة، فكلّ ما عندكنّ جميل، البيت والأثاث والآنية.

- إذن يجب أن تعودي معي الآن، سأساعدك في إعداد حقيبتك.

ولم يسَع الآنسة ماربل إزاء إصرار الفتاة إلاّ أن توافق، وبعد نحو نصف الساعة كانت تجلس مع الشقيقات الثلاث في قاعة الاستقبال فقالت لنفسها: ها أنا ذا قد عُدت مرة أخرى.

ثم أغمضَت عينيها لحظة وحاولت أن تسبر غور مشاعرها وانطباعاتها، ثم قالت لنفسها: ها أنا ذا قد دخلتُ البيت القديم للمرة الثانية، فهل في جوّ ذلك البيت ما يثير الريبة؟ لا، فالجوّ ينمّ عن الشقاء والتعاسة أكثر مما يبعث على الارتياب.

ثم فتحَت عينيها ونظرت إلى لافينيا وكانت قد دخلَت حاملة أقداح الشاي في نفس اللحظة، فقالت لنفسها: هي كالعهد بها، امرأة عادية بسيطة خالية من العُقَد. تُرى هل روّضَت نفسها على إخفاء حقيقة مشاعرها عن عيون الناس بعد حياة كلّها شقاء ومتاعب؟

ثم نظرَت إلى كلوتيلد وقالت لنفسها: هذه المرأة تذكّرني بامرأة إغريقية تُدْعى كليتمنسترا تقول الأساطير إنها قَتلت زوجها في الحمّام، ولكن من المحقّق أن كلوتيلد لم تقتل زوجها لأنها لم يكن لها زوج قطّ، كذلك لا يمكن أن تكون قد قتلَت الفتاة التي قيل إنها كانت تحبّها أكثر من نفسها، أنا واثقة من ذلك لأنني رأيتُ الدموع تترقرق في عينيها حين دار الحديث حول مصرع فيريتي. وماذا عن أنثيا؟ أنثيا هي التي أرسلت الطرد بالبريد، وأنثيا هي التي جاءت لتدعوني للإقامة في البيت، والواقع أنني لا أستطيع أن أفهم تلك الفتاة، فعيناها تدوران حولها بسرعة وكأنها تخشى شيئاً، ولكن ماذا تخشى؟ هل هي مريضة عقلياً

وتخشى أن يعيدوها إلى المصحّة التي قضَت فيها بعض سنيّ حياتها؟ هل تخشى أن تظن أختاها أنه ليس من الحكمة أن تظلّ طليقة؟ هل تشفِق أختاها مما قد تقوله أو تفعله؟ إن في الجوّ شيء، ولكن ما هو؟

ثم خرجَت لافينيا بأقداح الشاي وانطلقَت أنثيا إلى الحديقة، وبقيَت كلوتيلد وحدها مع الآنسة ماربل، فقالت ماربل: هل تعرفين قسّاً يُدْعى ببرازون؟

- نعم، لقد كان في الكنيسة أمس. هل تعرفينه أنت؟

- لا، ولكنه زارني في الفندق وتحدّث إليّ، وقد قال إنه ذهب إلى المستشفى بعد وفاة الآنسة تمبل وسأل عما إذا كانت قد تركَت له رسالة، ويبدو أن الآنسة تمبل كانت تنوي زيارته، وقد أجبتُه بأنها كانت في غيبوبة طوال فترة زيارتي لها وأنها لم تحمّلني أية رسالة له.

فقالت كلوتيلد: ألم تقُل شيئاً؟ ألم تقُل أيّ شيء يوضّح الحادث الذي أودى بحياتها؟

- نعم، لم تقُل أيّ شيء.

- هل تعتقدين أنه وقع قضاء وقدراً، أم أن ما قالته جوانا كروفورد وأملين برايس من أنهما رأيا شخصاً يدحرج الحجَر له نصيب من الصحّة؟

- ما داما قالا ذلك فلا بدّ أنهما رأياه.

وفي تلك اللحظة دخلَت أنثيا وهي تحمل باقة من الزهور البيضاء، وقالت وهي تضحك ضحكة عصبية غريبة: لقد

أحضرتُ باقة من الزهور الجنائزية.

فعبسَت كلوتيلد وصاحت: أنثيا، لا تقولي كلاماً كهذا!

فضحكت أنثيا بمرح وقالت: سأذهب لأضعها في إناء.

ثم خرجت فقالت كلوتيلد: حالتها تزداد سوءاً كل يوم.

- هل يقلقك أمرها؟

- إنها أصغر أخواتي، وكانت دائماً معتلّة الصحّة شاذّة في تصرّفاتها، ولكنٍ من المؤكّد أنها ازدادت سوءاً في الفترة الأخيرة؛ فهي لا تقدِّر المسؤولية وتضحك ضحكات هستيرية بلْهاء حين لا يكون هناك ما يستوجب الضحك. نحن لا نريد أن نرسلها إلى أيّ مكان آخر، وهي بحاجة إلى العلاج ولكنها ترفض مغادرة البيت؛ فهو بيتها على كل حال.

وصمتت لحظة ثم استطردت قائلة: ولافينيا تريد العودة إلى كوخها بالقرب من لندن، وأعتقد أنها تخشى أنثيا رغم أنني قلتُ لها إنه ليس هناك ما تخشاه منها، وهي تقول أشياء غريبة وتبدي أفكاراً شاذة في بعض الأحيان، ولكنها ليسَت خطرة. لقد فكّرت في بيع هذا البيت والانتقال إلى مكان آخر لعلّ تغيير البيئة والجوّ يفيدانها.

- لا شك أن من بواعث ألمك وحزنك أن تجدي نفسك هنا وسط كل ذكريات الماضي.

- أجل، أنا أعود بأفكاري دائماً إلى تلك الابنة العزيزة المحبوبة. لقد كانت جميلة وذكية وفاتنة وممتازة، وكنت أحبّها وأفخر بها، ثم جاء ذلك المعتوه المريض العقل...

- أتعنين مايكل رافيل؟

- نعم، وليته ما جاء. لقد كان يقيم في هذه المنطقة واقترح عليه أبوه أن يزورنا فجاء وتناول الطعام معنا، وكان ظريفاً رغم انحرافه وماضيه الحافل بالجرائم، ولم أتصوّر قطّ أن فيريتي يمكن أن تقع في حبائله، فقد ظننتُ في البداية أن الأمر مجرّد إعجاب كما يحدث للفتيات عادة في مثل هذه السنّ، ولكنها أحبّته كثيراً فصارت لا تفكّر إلا فيه وترفض سماع أية كلمة ضدّه وتصرّ على أن كل ما حدث له كان خارجاً عن إرادته ولا ذنب له فيه وأن جميع الناس يناصبونه العداء ظلماً، إلى آخر تلك العبارات الجوفاء المألوفة. ولما لم تُجْدِ معها النصائح حاولتُ أن أبعده عن البيت فطلبتُ إليه أن يكفّ عن زيارتنا، وكان ذلك خطأ أدركتُه فيما بعد؛ فقد أخذت تقابله خارج البيت في أماكن مختلفة، وكان ينتظرها بسيارته في أماكن متفق عليها بينهما ويعيدها آخر الليل، وقد حدث مرة أو مرتين أنه لم يُعِدها إلاّ في اليوم التالي، فحاولتُ أن أقنعها بأن كل ذلك يجب أن ينتهي ولكنهما أبيا الإصغاء إليّ.

- هل كان في نيّتها الاقتران به؟

- لا أظن أن الأمر وصل إلى هذا الحدّ، ولا أعتقد أبداً أنه أراد الزواج أو فكّر فيه.

- مسكينة أنتِ، لا بدّ أنك تألّمت كثيراً.

- أجل، وكانت أشدّ آلامي عندما دُعيتُ للتعرّف على جثّتها بعد أن اختفت مدّة طويلة وانقطعت أخبارها. لقد تبادر إلى أذهاننا حين اختفت أنها فرّت معه، وتوقّعنا أن يصلنا نبأ

عنهما في وقت قريب، ولكن رجال الشرطة كانوا ينظرون إلى الموضوع نظرة أخرى، فاستدعوا مايكل وطلبوا إليه أن يتعاون معهم في البحث عنها، وأخيراً وجدوا جثّتها في مكان مهجور يبعد عن هنا نحو ثلاثين ميلاً. ثم ذهبتُ إلى المشرحة لرؤيتها، وقد كان المنظر مخيفاً يدلّ على منتهى القسوة والوحشية. لماذا فعل بها ذلك؟! ألم يكفِه أنه قتلها خنقاً؟! آه! لم أعُدْ أطيق الحديث في هذا الموضوع!

ثم انهمرت الدموع من عينيها فقالت الآنسة ماربل: أنا آسفة جداً.

فقالت كلوتيلد: أنا لا أكفّ عن التفكير في فيريتي وفي الطريقة البشعة التي قُتلَت بها، ولكنني أشعر ببعض العزاء أحياناً عندما أفكّر في أن الفتيات قد أمِنّ شرّ ذلك المعتوه؛ فقد حُكم عليه بالسجن المؤبّد، وهو سجين الآن ولن يُسمَح له بالخروج حيّاً حتى لا يرتكب جرائم أخرى. على أنني أتساءل لماذا لم يرسلوه إلى إحدى المؤسّسات التي يضعون فيها المجرمين غير المسؤولين، أعني المجرمين ذوي العقول المريضة. أنا واثقة من أنه لم يكن مسؤولاً عمّا فعل.

قالت ذلك ونهضت، ثم غادرت الغرفة في لحظة دخول لافينيا، فقالت هذه وهي تجلس: لا تعبئي بكل ما تقوله كلوتيلد؛ فهي لم تبرأ تماماً من الصدمة التي أصابَتها بعد مصرع فيريتي، فقد كانت تحبّ فيريتي بجنون.

- ويبدو أيضاً أنها قلقة على أختك الصغرى.

- أنثيا؟ أنثيا بخير، صحيح أنها عصبية وسريعة الانفعال

وتتخيّل أموراً بعيدة عن الحقيقة ولكن ليس ثمة ما يدعو كلوتيلد للقلق عليها. يا إلهي! مَن الذي يطلّ من النافذة؟!

ونظرت الآنسة ماربل فرأت في إطار النافذة وجهَين مألوفَين، وجهَي الآنسة بارو والآنسة كوك، فقالت الأولى: معذرة، لقد كنا نمرّ من هنا وخطر لنا أن نسأل عن الآنسة ماربل، فقد قيل لنا في الفندق إنها جاءت للإقامة هنا. آه، أهذه أنت يا آنسة ماربل العزيزة؟ لقد أردتُ أن أقول لك إننا لن نذهب إلى تلك الكنيسة اليوم لأنها مغلَقة بسبب أعمال الترميم والنظافة وسنذهب غداً، وقد خطر لي أنك ربما تودّين مرافقتنا إليها غداً. أرجو أن تغفري لنا وقوفنا أمام النافذة هكذا، فالواقع أنني ضغطتُ الجرس فلم يدقّ.

فقالت لافينيا: هو متقلّب المزاج يدقّ تارة ويتمرّد تارة أخرى. لماذا لا تتفضّلان بالدخول؟

- شكراً، نحن سنعود الآن إلى الفندق لتناول طعام العشاء. ألا تأتين معنا يا آنسة ماربل؟

- شكراً، فقد دُعيتُ للإقامة هنا ليلة أخرى.

- ما أسعد حظّك! أنا واثقة من أنك ستجدين هنا الراحة التي تنشدينها، والواقع أن الجلَبة في الفندق لا تُطاق.

فقالت لافينيا: لماذا لا تعودان بعد العشاء لتتناولا معنا قدحاً من القهوة؟

- شكراً لك، سوف يسعدنا حقاً أن ننعم بكرم ضيافتك.

* * *

الفصل العشرون

الساعة تدقّ الثالثة

عادت الآنسة كوك والآنسة بارو إلى البيت القديم في منتصف الساعة التاسعة تماماً، وقبل قُدومهما كانت الآنسة ماربل تتناول العشاء مع الشقيقات الثلاث فقالت أنثيا: أليس غريباً أن تتخلّف هاتان السيدتان عن الرحلة؟

فأجابت الآنسة ماربل: وأية غرابة في ذلك؟ لا شكّ أن لديهما خطة مرسومة وضعتاها بدقّة متناهية.

- ماذا تعنين؟

- أعني أنهما وضعتا في حسابهما كافّة الاحتمالات وأعدّتا العدّة لها.

- يُخيّل إليّ أن فيهما شيئاً من الغموض. ألا تظنين هذا يا كلوتيلد؟

فأجابت كلوتيلد: لعلك على حقّ؛ ففي سلوكها كثير من الزيف.

فقالت الآنسة ماربل: الواقع أنني لم ألاحظ ذلك، ولكن دعونا منهما. لقد قضيتُ هنا اليوم وقتاً رائعاً، وغداً صباحاً سأزور الحديقة وأتفقّد زهور الشجيرات التي نبتَت فوق أنقاض بيت الزهور، فقد رأيتها منذ يومين وكانت قد بدأت تتفتّح، وأعتقد أنني سأجدها غداً باقة يانعة تذكرني دائماً بزيارتي لهذا البيت.

فقالت أنثيا: أنا أمقتها وأريد إزالتها كي أقيم مكانها بيتاً جديداً للزهور، وهذا ما سنفعله حتماً متى توفّر لدينا المال الكافي، أليس كذلك يا كلوتيلد؟

فقالت كلوتيلد: أظن أننا بحثنا هذا الموضوع مراراً. ثم ما حاجتنا إلى بيت للزهور الآن؟

فقالت لافينيا: لا ضرورة لهذه المناقشات العقيمة وهلمّوا بنا إلى قاعة الاستقبال؛ فقد حان موعد قدوم ضيفتَينا.

وجاءت الضيفتان فقدّمَت كلوتيلد لكل منهما قدحاً من القهوة، ثم انطلقَت إلى المطبخ فعادت بقدح ثالث ووضعته أمام الآنسة ماربل، فقالت الآنسة كوك: معذرة يا آنسة ماربل، ولو أنني في مثل سنّك ما شربتُ القهوة في مثل هذه الساعة، فهي سوف تصيبك بالأرق.

- أتظنين هذا؟ لقد تعودتُ احتساء القهوة في المساء.

- نعم، ولكن هذه القهوة قوية ومركّزة، ونصيحتي لك ألاّ تشربيها.

ونظرت إليها الآنسة ماربل فرأت على وجهها دلائل القلق

ولاحظت أنها غمزت قليلاً بعينها فقالت: أظنك على صواب. هل درستِ أصول التغذية؟

- تلك إحدى هواياتي، وقد تدرّبتُ على التمريض أيضاً؛ فكلٌ منهما يرتبط بالآخر.

- هذا صحيح.

ونحَّت الآنسة ماربل القدح جانباً ثم قالت: هل لديكم صورة لتلك الفتاة، أعني فيرتي هانت؟ لقد أطنب القسّ في وصفها، ويبدو أنه كان يحبّها.

فقالت كلوتيلد: لقد كان يحبّ جميع الشباب.

ثم سارت إلى مكتب صغير في ركن الغرفة وفتحت أحد الأدراج وتناولت منها صورة قدّمَتها إلى الآنسة ماربل وهي تقول: إليك صورتها.

فهتفَت الآنسة ماربل وهي تتأمّل الصورة قائلة: يا له من وجه فاتن! هذا وجه غير عاديّ، مسكينة تلك الفتاة.

فقالت أنثيا: من المزعج أن ما حدث لها ما زال يحدث لكثير من الفتيات، فهنّ يصادقن أيّ الشباب مهما كان دون أن يهتمّ أحد بتبصيرهن وتوجيههن الوجهة السليمة.

فقالت كلوتيلد: على الفتيات في هذه الأيام أن يحرصن على أنفسهن، ولكنهنّ لا يعرفن كيف. كان الله في عونهنّ.

ثم مدَّت يدها لتستردّ الصورة من الآنسة ماربل بانزعاج فقالت الأخيرة: يا إلهي! هل أنا السبب؟ هل دفعتُ ذراعك

دون أن أشعر؟

فقالت كلوتيلد: لا، بل هو كمّ ثوبي. هل أُحضر لك كوباً من اللبن الدافئ ما دامت القهوة لا تلائمك؟

- أكون شاكرة لو فعلتِ؛ فاللبن الدافئ يلطّف من توتّر الأعصاب قبل النوم.

وبعد حديث قصير استأذنت الآنسة كوك والآنسة بارو للانصراف، وأحدثتا عند رحيلهما جلَبة وهرجاً لا مبرّر لهما، فقد نسيَت إحداهما حقيبة يدها فعادت مهرولة لتأخذها ونسيَت الأخرى منديلها وعادت أيضاً، وما إن انصرفتا حتى تنفّسَت أنثيا الصعداء وقالت: ضجيج، ضجيج! ضجيج لا نهاية له!

فقالت لافينيا: أنا أؤيّد كلوتيلد في أن بهما شيئاً من الزيف.

قالت الآنسة ماربل: هذا رأيي أيضاً. لقد فكّرتُ في أمرهما طويلاً وتساءلتُ لماذا اشتركتا في هذه الرحلة وهل استمتعتا بها وما سبب قدومهما.

فسألتها كلوتيلد: وهل عرفتِ الإجابة على كل هذه الأسئلة؟

فتنهّدَت الآنسة ماربل وقالت: أظن ذلك، فقد عرفتُ جواب كثير من الأسئلة.

ثم أحضرت كلوتيلد من المطبخ كوباً من اللبن الدافئ ورافقت الآنسة ماربل إلى غرفتها وهناك سألتها: هل تحتاجين إلى شيء آخر؟ أي شيء؟

- لا، أنا شاكرة لك ولأختَيك ما فعلتنّ من أجلي.

- ما كان ينبغي أن نفعل أقلّ مما فعلناه، خاصة بعد أن تسلّمنا رسالة السيد رافيل.

- لقد كان رجلاً كريماً ذا عقل مرتّب.

- وأعتقد أنه كان كذلك من كبار رجال المال. هل أُرسِلُ لك طعام الفطور في الصباح؟ ربما تفضّلين عدم مغادرة غرفتك.

- لا، لا، لن أكلّفك كل هذا العناء، فأنا سأتناول الفطور في قاعة الطعام.

- إذن طابت ليلتك. أتمنى لك نوماً هنيئاً.

* * *

دقّت الساعة في بهو البيت القديم تمام الثانية، وقد كان بالبيت أكثر من ساعة وكلّها لا تدقّ معاً وبعضها لا يدقّ أبداً. وبعد مرور ساعة أخرى دقّت ساعة الطابق الأول الثالثة، ورأت الآنسة ماربل ضوءاً ينبعث من الفراغ تحت باب غرفتها فاعتدلت جالسة في فراشها ووضعت إصبعها على زِرّ المصباح الكهربائي، ثم اختفى الضوء وفُتِح الباب بهدوء، وسمعت الآنسة ماربل وقع خطى بطيئة لا تكاد تُسمَع، فضغطت زِرّ المصباح وتألّق النور في الغرفة وهتفَت قائلة: آه، أهذه أنتِ يا آنسة كلوتيلد؟

- نعم، لقد ظننتُ أنك ربما كنت بحاجة إلى شيء.

فحدجتها الآنسة ماربل بعينيها. وكانت ترتدي ثوباً أحمر

طويلاً زاد قَوامها الفارع طولاً، وقد انسدل شعرها الأسود الجميل على كتفيها العريضتين، فأُعجبَت الآنسة ماربل بها وإن كان مظهرها قد ذكّرها على الفور ببطلة إحدى المسرحيات الإغريقية، تلك المرأة التي قتلَت زوجها في الحمّام.

قالت كلوتيلد: هل أنت واثقة من أنك لست بحاجة إلى شيء؟

- نعم، شكراً لك.

ثم استطردت قائلة بلهجة الاعتذار: يؤسفني أنني لم أشرب اللبن.

- لماذا بالله عليك؟

- لقد ظننتُ أنه لا يلائمني.

فوقفت كلوتيلد بجانب الفراش وحملقَت نحوها، فأكملَت الآنسة ماربل عبارتها بقولها: من الناحية الصحّية.

فقالت كلوتيلد بخشونة: ماذا تعنين؟

- أظن أنك تعرفين ما أعني، بل لعلك تعرفينه منذ المساء، وربما قبل ذلك أيضاً.

- لستُ أفهم شيئاً مما تقولين.

- أحقاً؟

قالت ذلك بصوت يجمع بين السخرية والاستفسار، ولكن كلوتيلد تجاهلت السؤال وقالت: أظن أن اللبن أصبح بارداً. سآتيك بقدح آخر.

ثم مدّت يدها وتناولت كوب اللبن فقالت الآنسة ماربل: لا تزعجي نفسك لأنك لو أحضرتِ كوباً آخر فلن أشربه.

- الواقع أنني لا أفهم ما تعنين؛ أنت غريبة الأطوار حقاً، فأية امرأة أنتِ؟ ولماذا تتكلّمين هكذا؟ مَن أنت؟!

- أنا ممثّل العدالة الإلهية التي تبطئ أحياناً ولكنها تأتي في النهاية.

- ما زلتُ لا أفهم؛ عن أيّ شيء تتحدثين؟!

- عن فتاة جميلة قتلتِها.

- فتاة قتلتُها؟!

- فتاة تُدْعى فيريتي.

- ولماذا أقتُلها؟

- لأنك كنت تحبّينها.

- طبعاً كنتُ أحبّها أكثر من نفسي، وكانت هي تحبّني أيضاً.

- لقد قال لي بعضهم منذ وقت ليس ببعيد إن الحبّ كلمة مخيفة. لقد أحببتِ فيريتي حبّاً جمّاً، وقد كانت كل شيء في الدنيا بالنسبة إليك، وكانت هي بدورها تحبّك وتُخلص لك، إلى أن طرق قلبها حبّ آخر مختلف تماماً، فقد أحبّت شاباً لعله لم يكن خير نموذج للشباب، ولكنها أحبّته وأحبّها، وأرادت هي الخلاص من قيود الحبّ الذي تعيشه معك كي تحيا حياتها مع الرجل الذي وقع عليه اختيارها ليكون أباً لأولادها.

فجلسَت كلوتيلد على مقعد بجوار الفراش وقالت بهدوء: يُخيّل إليّ أنك فهمت كل شيء.

- أجل، لقد فهمتُ كل شيء.

- ما ذكرتِه صحيح ولن أنكره؛ فلا يهمّ الإنكار أو عدمه.

- صدقتِ، لا أهمية للإنكار.

- هل يمكنك أن تدركي كم تعذّبتُ؟

- نعم، أستطيع أن أدرك ذلك.

- هل تدركين مدى شقاء الشخص الذي يعلم أنه سيفقد أحبّ شيء في الدنيا إلى قلبه؟ يفقده من أجل شابّ منحرف لا أخلاق له، شابّ فاسد غير جدير بالمخلوقة الجميلة الرائعة التي أحببتُها أكثر من نفسي. كان لا بدّ لي أن أمنع تلك الجريمة.

- وهكذا آثرتِ أن تقتلي الفتاة بدلاً من أن تفعل شيئاً كهذا، أليس كذلك؟

- أتظنين أنه كان في مقدوري أن أخنق الفتاة التي أحببتُها؟ أتظنين أنه كان في مقدوري أن أهشّم رأسها وأشوّه وجهها؟ ذلك لا يفعله إلا رجل فاجر شرّير لا يعرف معنى الرحمة.

- أجل، أنا أعلم أنك كنت تحبّين الفتاة ولا يمكن أن تفعلي ذلك.

- أرأيتِ؟ أنت تناقضين نفسك!

- أنت لم تفعلي ذلك بالفتاة التي كنت تحبّينها لأن فيريتي

ما زالت هنا، في الحديقة، وأكبر الظن أنك لم تخنقيها وإنما قدّمت إليها كوب أو كوب لبن به كمّية كبيرة من مادّة منوِّمة، وعندما ماتت حملتِها إلى الحديقة ودفنتِها تحت أنقاض بيت الزهور وغرست فوقها من الأعشاب المتسلّقة ما حجبها تماماً. لقد بقيَت فيريتي معك هنا لأنك أبيَتِ أن تتخلّي عنها.

- أيتها الحمقاء، أيتها العجوز الحمقاء! هل تظنين أنك ستغادرين هذا المكان وأنتِ على قيد الحياة كي تروي هذه القصة؟

- أنا لستُ واثقة من ذلك، خاصة أنك امرأة قوية، أقوى مني كثيراً.

- يسرّني أنك تدركين هذا.

- وفضلاً عن ذلك أنت بلا قلب أو ضمير، وقد لاحظتُ من تجاربي أن القاتل قلّما يقنع بجريمة واحدة. وأنت قد قَتلت فتاتين، الفتاة التي أحببتها فتاة أخرى عداها.

- هل تعنين نورا برود؟ لقد كانت بَغِيّاً بلْهاء. كيف علمتِ بأمرها؟

- لقد فهمتُ مما رأيتُ وسمعتُ أنك لا يمكن أن تُقدمي على خنق الفتاة التي أحببتها وتشويه وجهها بتلك الطريقة البشعة، ثم علمتُ أن فتاةً أخرى قد اختفت في نفس الوقت ولم يُعثَر على جثّتها، وهداني تفكيري إلى أن الجثة التي وُجدت لا بدّ أنها كانت جثة نورا برود في ثياب فيريتي هانت وأنك عندما دُعيتِ للتعرّف عليها أكّدت أنها جثة فيريتي هانت.

- ولماذا أفعل أمراً كهذا؟

- لأنك أردت للشاب الذي انتزع منك فيريتي، الشاب الذي أحبّ فيريتي وأحبّته، أردت أن يحاكم بتهمة قتلها، ولذلك واريت جثة فيريتي حيث يتعذّر العثور عليها وواريت جثة الفتاة الأخرى في ذلك المكان المقفِر بعد أن شوّهت وجهها وألبستها ثياب فيريتي ووضعت معها حقيبة فيريتي ورسالة أو رسالتين باسمها وسلسلة ذهبية كانت تتحلّى بها. ومنذ أسبوع ارتكبت جريمة ثالثة، وهي جريمة قتل إليزابيث تمبل، قتلتِها لأنها جاءت إلى هذه المنطقة لأنك خشيت أن تكون قد تلقّت من فيريتي معلومات إذا ضُمَّت إلى ما يعلمه القسّ بربازون لكان من الممكن أن تظهر الحقيقة، ولما كنت امرأة قوية فقد أمكنك انتزاع ذلك الحجر من مكانه وإلقائه عليها. لا بدّ أن يكون ذلك قد كلّفك كثيراً من الجهد، ولكنك امرأة قوية.

فقالت كلوتيلد: أجل، أنا قوية بحيث أستطيع الإجهاز عليك الآن.

- لا أظن أنه سيُسمَح لك بذلك.

- ماذا تعنين أيتها العجوز الحمقاء الحقيرة؟!

- صحيح أنني عجوز لا حول لي ولا قوّة، ولكنني أعتبر نفسي ممثّلة العدالة.

فضحكت كلوتيلد ساخرة وقالت: ومَن الذي يمنعني من الإجهاز عليك يا ممثّلة العدالة؟

- ملاكي الحارس.

فضحكَت كلوتيلد ساخرة وقالت: وهل لك ملاك حارس؟

وأخذت تدنو منها، فقالت الآنسة ماربل: بل هما ملَكان حارسان، فالسيد رافيل يفعل كل شيء بمبالغة دائماً.

ثم مدَّت يدها تحت وسادتها وأخرجَت صفّارة رفعتها إلى شفتيها فدوّى الصفير في سكون الليل، فحدث أمران في وقت واحد، فقد فُتح الباب وظهرت الآنسة بارو على عتبته، وفي نفس اللحظة فُتحت خزانة الملابس وخرجت منه الآنسة كوك، ثم تقدّمَت المرأتان وعلى وجهَيهما دلائل الجدّ وفي عيونهما نظرة تختلف تماماً عن تلك النظرات البريئة التي رأتها في عيونهما قبل بضع ساعات، وهتفت الآنسة ماربل قائلة: ملَكان حارسان، لقد رفع السيد رافيل من قَدْري وجعل لي من الأهمية أكثر مما أستحقّ.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

الآنسة ماربل تروي قصّتها

قال وانستيد للعجوز ذات الشعر الأبيض التي تجلس أمامه: متى اكتشفتِ أن المرأتين كانتا من الشرطة وأنهما ما اشتركتا في الرحلة إلاّ لحمايتك؟

وكانا يجلسان في أحد المكاتب الحكومية بلندن ومعهما أربعة أشخاص آخرون هم على الترتيب: واحد من كبار الموظّفين بمكتب المدّعي العام، والسيد جيمس لويد مساعد مدير اسكتلنديارد، والسيد أندريا ماكنيل مدير سجن مانستون، أمّا الرابع فكان ممثل وزير الداخلية.

فأجابت الآنسة ماربل قائلة: لم أكتشف ذلك إلاّ في الليلة الأخيرة عندما حذّرتني الآنسة كوك بوضوح من تناول قدح القهوة، ثم عندما شدّت إحداهما على يدي وهي تهمّ بالانصراف ووضعت فيها الصفّارة التي استخدمتُها فيما بعد.

- ألم تتناولي كوب اللبن؟

- لم أتناوله طبعاً.

- مما يثير دهشتي أنك لم تُغلِقي باب غرفتك!

- لو أنني فعلتُ لكان ذلك خطأ جسيماً؛ فقد أردتُ أن تدخل كلوتيلد غرفتي لأرى ماذا ستفعل أو تقول؛ فقد كنتُ واثقة من أنها ستأتي بعد انقضاء الوقت الكافي لتستوثق من أنني شربتُ اللبن وفقدتُ الوعي أم لا.

- هل ساعدتِ الآنسة كوك على الاختباء في الخزانة؟

- لا، ولقد دُهشت حينما رأيتُها تخرج منه، ويبدو أنها توارت فيه عندما خرجتُ من غرفتي لأذهب إلى الحمّام.

- وهل كنتِ تعلمين أنهما داخل البيت؟

- توقّعتُ بعد الصفّارة أن تكونا في مكان قريب، وأظن أنهما لم تجدا صعوبة في التسلّل إلى داخل البيت.

- لقد عرّضتِ نفسك لخطر جسيم يا آنسة ماربل.

- لا يستطيع الإنسان أن يمضي في الحياة قُدُماً دون أن يتعرّض لأخطار.

- بالمناسبة، فكرتك عن الطرد الذي أُرسل إلى الجمعية الخيرية كانت صحيحة؛ فقد وُجد بداخله ذلك القميص ذو المربّعات. ولكن كيف طرأت لك هذه الفكرة؟

- كان واضحاً من وصف جوانا وأملين للقميص أن الغرض من اختيار ألوانه الصارخة هو لفت الأنظار، وكان من المهمّ والضروري أن يختفي ذلك القميص تماماً بحيث لا يعثر له أحد على أثر، وهل هناك طريقة للتخلّص منه أفضل من إرساله إلى إحدى الهيئات الخيرية في مكان بعيد؟ لقد اتضحت هذه الفكرة في ذهني حين رأيت أنثيا تحمل الطرد إلى مكتب البريد.

- ومتى بدأت ريبتك في كلوتيلد؟

- حين قالت إليزابيث تمبل إن الفتاة ماتت بسبب الحبّ، وقال القسّ بربازون إن مايكل كان مخلصاً في حبّه وإن العاشقَين لم يحضرا إليه في الوقت المحدّد لأن شيئاً أقوى من إرادتهما حال دون ذلك وقد يكون الموت هو الحائل، وحين رأيتُ أنقاض بيت الزهور في ركن الحديقة تغطّيها تلك النباتات المتسلّقة الطفيلية التي تقتل كل ما حولها ولا تُترَك على سجيّتها إلاّ لإخفاء منظر يؤذي العيون، وحين سمعتُ عن مدى حبّ كلوتيلد لربيبتها تبادر إلى ذهني على الفور أن ذلك الحبّ الأناني هو الحبّ الذي يمكن أن يَقتُل، الحبّ الذي وصفَته إليزابيث تمبل بأنه يمكن أن يكون شيئاً مخيفاً.

- هل تعلمين ماذا حدث في تلك الليلة بعد انصرافك من البيت القديم؟

- أتعني ما حدث لكلوتيلد؟ أعلم أنها اختطفَت كوب اللبن المسموم وتجرّعته.

- هل كنتِ تتوقّعين هذا؟

- لا، ولو أنني توقّعته لما استطعت أن أفعل شيئاً؛ فقد اختطفَت الكوب بسرعة مذهلة وتجرّعته قبل أن يتمكّن أحد من منعها، وأعتقد أنها بذلك قد فعلَت الأمر الطبيعي. لقد كانت تتوق إلى الفرار من جثّة فيريتي التي ظلّت تُطل عليها من الحديقة وتعذّبها كل يوم طوال عشرة أعوام.

* * *

(تمت)